
روايات الهلال
البير قصيري

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

سوريا ٤٠ ليرة - لبنان ٦٠٠ ليرة - الأردن ٢٤ قلس - الكويت ١,٢٥ فلس - السعودية ١٢ ريالا - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهما - البحرين ١,٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالا - دبي / أبو ظبي ١٢ درهما - مسقط ١,٢٠٠ ريال - غزة الضفة القدس ٢ دولار - لندن ١,٥٠ جنيه

العدد ٥٣٨

اكتوبر ١٩٩٣ ● ربيع ثان ١٤١٤ هـ

NO - 538 - OC - 1993

اهداءات ٢٠٠١

أ. صلاح راتب

القاهرة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٢٥ جنيها فى ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٣٠ دولارا - باقي دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت السيد عبدالعال بسيوني زغلول الصفا ص ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤

الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات ص ب ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج م ع

تلكس TELEX 92703 hilal u n

فاكس FAX 3625469

العنف والسخرية

تأليف
البيـــر قصـــيرى

ترجمة
محمـــود قـاسـم

●

دار الهـــــلال

هذه هي الترجمة الكامل لرواية

LA VIOLENCE ET LADERISION

PAR

ALBERT COSSERY

1964

الغلاف للفنان :

حلمى التـونى

قبــل أن تقــرأ

المصادفة وحدها هى التى ساقتنا لترجمة بعض روايات البير قصيرى . وهى بكل المقاييس مصادفة جميلة ، وبالغة الأهمية . فـ «قصيرى» كان مجهولا تماما قبل ان نترجم له رواية «شحاذون ومعتزون» التى نبهت القارئ العربى لقيمته، وأهميته . فهو كاتب مصرى فى كل ما كتبه رغم المسافتين المكانية والزمنية التى فصلت بينه وبين وطنه الذى رحل عنه منذ عام ١٩٤٥ ، أى منذ قرابة نصف قرن ..

ومما نعتز به ان نقدم واحدة من أهم روايات البير قصيرى احتفالا ببلوغه الثمانين من العمر ، وهى باعتراف الكاتب فى خطاب أرسله الى المترجم روايته الأكثر أهمية فيما كتب .

وقصيرى ، المولد فى مدينة القاهرة ٣ نوفمبر عام ١٩١٣ ، لم يكن ذنبه أن لغته الاولى التى تعلمها هى الفرنسية ، ولعله حاول أن يعوض ذلك بأن توغل فى الأحياء الشعبية فعاش فيها سنوات طويلة ، واحتك بالناس فى أروقتها ، عاشر البسطاء فكان من أفضل من عبر عنهم . من هنا جاءت أهميته ، ليس فقط لأنه كتب عنهم ، ولكن لأنه صنع منهم المفكرين وأصحاب الرأى والفلاسفة ، ففى رواياته كان فلاسفة الشعب هم ابناءه وليسوا الكتاب من امثال قصيرى نفسه ، وفى أغلب روايات الكاتب هناك اصحاب رأى وصناع تمرد لما يدور من حولنا . وهؤلاء ينتمون الى هذه

الطبقات الدنيا ، مثل شخصية عبد العال في رواية «منزل الموت الاكيد» .. فهو يقف برأيه وفكره ضد صاحب المنزل الذي يُسوِّف المستأجرين في الاصلاح ، حتى تجئ لحظة الخطر .

وفي بعض روايات قصيرى هناك المثقف الذي عليه ان يعتزل المجتمع وليس امامه سوى أن يعيش مع البسطاء ، وفي الاحياء الشعبية ، وهذا المثقف ثورى سلبي في رواية «شحاذون ومعتزون» .. يعيش على الهامش ، يمكنه ان يعمل في ماخور ، أو يرتاده ، من اجل لحظة متعة ثم يهرب الى المخدرات ، ويظل ليله متيقظا ، وينام طيلة النهار . وقد تماثل هذا في كل من «جوهر» استاذ التاريخ المستقيل ، و«يكن» الشاعر ، و«الكردى» الموظف . ونحن لا نعرف منبع جذور الاستاذ، لكن «يكن» يعيش مع أمه الفقيرة المعدمة، التي تنكفئ في غرفتها على آلة الحياكة من أجل ان تدبر معاشها، وبعض المطالب الصغيرة لابنها الشاعر الشعبي الدميم الذي عرف السجن ، اما «الكردى» فهو الموظف الذي لا أسرة له ولا جذور ولذا فمن السهل ان يرتبط باستاذه جوهر ، نموذجه المفضل .

وهذا الثلاثي موجود بشكل ما في رواية «العنف والسخرية» التي كتبها قصيرى عام ١٩٦٤ اى بعد رواية «شحاذون ومعتزون» بتسع سنوات تقريبا . ورغم أن هناك بعض الاختلافات في السمات والمكان في الروايتين ، فان هناك نقاط تشابه واضحة ، ولكنه تشابه شكلي في المقام الاول ، فاذا كانت رواية «شحاذون ومعتزون» تدور في شوارع منطقة الازهر وما حولها في أواخر الثلاثينات ، فان احداث رواية «العنف والسخرية» تدور في مدينة الاسكندرية ، بين حي الجمرك وشارع الكورنيش وأبنية المدينة الشعبية . ويقوم قصيرى هنا بتجريد المدينة ليجعلها اى مكان في العالم ، فهو لا يذكر

اسم الاسكندرية مباشرة ، وان كان قد سمى حى الجمرك بالميناء والكورنيش ومن الواضح ان الكاتب قد صاغ هذه الرواية ، ومدينة الاسكندرية فى ذاكرته بعد ان غادر مصر بحوالى عشرين عاما ، وذلك خلافا لذاكرته مع القاهرة عندما كتب روايته السابقة ، حيث كانت المسافة الزمنية أقل ..

لذا سعى قصيرى الى تجريد المدينة من اسمها ، لكنه لم يطمسها تماما ، وفى هذه المدينة عاش فى الاحياء الشعبية ، فأبطال هذه الرواية يعيشون بكافة مستوياتهم فى اطلال المدينة ، بدءاً من كريم الذى اختار غرفة فوق السطح ، يقيم بها منذ سبعة ايام فقط وهو القادم من حى شعبى ملىء بالحركة والبشر ، ثم خالد عمر الذى تحول الى تاجر كبير، وهو الذى لا يجد متعته إلا مع الفقراء ، ولا يحس بأى سعادة الا بين البسطاء . أما هيكل ، فرغم ان الرواية تشير انه يتصرف كأحد ابناء الطبقة الراقية ، فاننا نفهم من حواره مع خادمه «سرى» انه يعيش فى منطقة شعبية ، يهتم فيها الناس بأن يعرفوا المزيد من الحكايات عن هذا الانيق صاحب البدلة الواحدة.

المكان الوحيد الفخم الذى نراه فى الرواية هو «النادى» الذى يرتاده المحافظ الجديد واعوانه ، وهو من ناحية مساحة المكان الدرامية يعادل المأخور فى رواية «شحاذون ومعتزون» ونعنى هنا بالمساحة الدرامية انه المكان الذى تدور فيه أغلب اجزاء الرواية ، وهو الساحة التى تحدث فيها مواجهة المحافظ من طرف واحد . .

ولا شك ان هناك تشابها فى العلاقات هنا مع رواية «شحاذون ومعتزون» وقبل ان نشير الى ذلك ، يهمنا الاشارة الى ان المثقف قد تحول الى متمرد ايجابى وان كان شكل التمرد هنا قد اتخذ شكلا سلبياً هو السخرية من المحافظ ، فاذا كان جوهر وزملاؤه قد اعتزلوا الحياة العامة ،

وعاشوا على الهامش ، فان متعة السخرية من المحافظ هى عملية ذاتية خاصة بهيكل الذى يشعر بالندم الشديد لأن المحافظ قد أقيل من منصبه ، لانه كان لعبته التى يمارس عليها تمرده ..

«وهيكل» هذا قريب فى بعض صفاته من جوهر ، فهو رجل ينتمى الى طبقة اجتماعية أعلى قياسا الى زملائه ، وهو صاحب رؤية للعالم من حوله ، وهذا هو سبب اعجاب مجموعة من الشباب به ، والتفافهم حوله ، فاذا كان جوهر قد وجد فى الحياة الهامشية التى اختارها سعادته الخاصة ، وهو الاستاذ الجامعى سابقاً الذى اكتشف زيف التاريخ ،فان هيكل اصغر سنا (٣٢ سنة) يعيش شبه معدم ، ولذا فانه فى حاجة الى تمويل من خالد عمر ، الثرى الذى يمكنه ان يتاجر حتى فى النمور.

هذا الـ «هيكل» يعتبر المحرك الرئيسى للتمرد الساخر . واعجاب كل من كريم وخالد عمر به أشبه بنفس الاعجاب والتقديس الذى كنه كل من «الكردى» «ويكن» لجوهر ، وذلك رغم اختلاف سمات الاربعة ، ف «كريم» شخص هامشى ، يعمل فى صناعة الطائرات الورقية ، وخالد عمر تاجر ثرى لم يكف عن الاختلاط بالبشر ، أما الكردى فهو الموظف الذى يعبر عن تمرده بكلمات رنانة ، وهو شخص مجوف ، يمكن قيادته بسهولة ، أما «يكن» . فهو اسم لشاعر حقيقى عرفه قصيرى وهو فى الرواية عرف السجن، وعرفه الناس متمرداً ، ولكنه مشغول بالهروب من رجال الشرطة ، وعشق فتاة تحب الموسيقى وتدرسها من طرف واحد. «يكن» هو الشخص الوحيد المبدع فى عالم قصيرى فى هاتين الروايتين ، وكما أشرنا فان صناع هذا العالم هم من البسطاء ، وليسوا من المثقفين أو المبدعين . مثلما حدث فى رواية «منزل الموت الاكيد» .

وهناك شخصيتان مختلفتان تماما فى السمات هما : «نور الدين» ضابط الشرطة الشاذ جنسيا فى رواية «شحاذون ومعتزون» .. والذى يكتشف كنوز هذا العالم الهامشي ،فيقرر ان يصبح مواطنا فى مملكة جوهر بعد معرفته أن هناك فلسفة خاصة لهؤلاء الناس ، ثم تزداد حيرته عندما يحاور «يكن» في غرفته بالفندق حين يحدثه عن القنبلة الذرية المنتظرة .

تكرر هذا الحوار من جديد من خلال الاستجواب الذى تم بين الضابط حاتم وبين كريم فى مبنى المحافظة . فحاتم يميل الى مثل هذا النوع من الحوار مع متمردين من طراز كريم ، ورغم خبرة الضابط الطويلة في الاستجواب ، فانه يحس بالارتياح حين يحاور كريم ، بل ويدهش حين يراه يُقبّل يد المحافظ دليلا على تغيره وتحوله المضاد .. وكأنه يحس ان على كريم ألا يفعل ذلك مهما كانت الاسباب ..

أما الشخصية المقابلة فى رواية «العنف والسخرية» .. فهى المدرس «عرفي» ، وهو رجل يختلف كثيراً عن نور الدين ، فهو يعيش فى عالم من البراءة . تمثله امه المجنونة من طرف ، فالمجنون هو الشخص الوحيد الذى لا يعرف المكر ، والخبث ، أما على الطرف الثانى فهناك تلاميذ مدرسته الصغيرة الذين يأتون للتعليم لديه طوعا ، وهو يعلمهم على طريقته الخاصة ، فالمدرسة مفتوحة ، والاولاد على سجيتهم ، وهم يأتون إلى المدرسة صيفا فى أثناء العطلة ، واثناء حرارة الجو التى تلهب المدينة ، وهؤلاء الصغار يجب أن يكونوا أطفالا ، فاذا خرج اى منهم من مرحلة الطفولة فقد براءته ، وتعلم الخبث والمكر ، فالكبار تملؤهم الانانية والغباء والقبح والطموح الخائب وانهم جميعاً معذبون بطموحهم ، لذا فهو لا يتوانى عن الاشارة للصغير «زرطة» الذى لم يعد طفلا بأن موعد طرده من المدرسة قد اقترب .. لان على

الأطفال فقط (من سن السادسة حتى سن العاشرة) ان يبقوا هناك ..

ويهمنا ان نشير ايضا ان قصيرى لم يغير وجهة نظره فى هذه الرواية تجاه المرأة فنحن نرى «قمر» عاهرة صغيرة ، وكأنها صورة مكررة من «ارنبة» التى ماتت ، مخنوقة فى رواية «شحاذون ومعتزون» ، و «قمر» هنا عاهرة طيبة ، لعلها تمارس هذه المهنة لأول مرة ، والماخور هنا هو الكورنيش نفسه، حيث يصطاد الرجال بنات الليل أو العكس ، وفوق هذا الكورنيش التقى كريم بعاهرته التى جاءته فى أول الرواية .. ثم جاءته مرة أخرى فى نهايتها .. بدت كأنها استعذبت هذه العلاقة .. وهى ليست محترفة مثل «ارنبة» رغم تقارب عمريهما فهى تصدق كريم المفلس حين يطلب منها ان تأخذ ما تريد من مال فى جيبه الخاو .. فتتردد وتنصرف .. ثم تنتظره على السلم بعد اسابيع من اجل ان تنام فوق سريره ..

والنساء فى هذه الرواية بجميع اعمارهن ، عدا ام عرفى ، يسلكن سلوكا رديئا وفاحشا ، ابتداء بـ «سعاد» التى تتجسس على ابيها من اجل هيكل ، وتنقل له الاخبار اولا بأول وتنتهى علاقتهما بمجرد ان تؤدى وطرها المرتبط بمصلحة هيكل .. اما أصغر النساء وهى الطفلة التى يراها جالسة تنظر اليه وكأنها توده ان يخطفها، فهى ليست فى نظره «طفلة» بل انثى مستعدة ان تهرب مع فارسها رغم انها فى الثامنة ..

أما النموذج الوحيد البرىء ، النقى ، فهى ام عرفى العجوز .. المجنونة التى تعيش من خلال عقلها المفقود فى جو من الفنتازيا الوردية ، والحلم اللازوردى ، الذى يذهب بها بعيداً ، وهى تتخيل نفسها بملابسها الرثة أميرة أحلام جاءت من زمن بعيد ، الى زمن الصبا فى أحد مشاهد الرواية الاكثر تأثيراً فى النفوس .

(١)

بدا النهار معلنا عن قيظ شديد بشكل ، لم يسبق له مثيل.

أحس الشرطى الذى استلم نوبته قبل قليل عند مفترق الطرق الاكثر حيوية فى المدينة، بأنه فريسة لسراب يحيط بعينيه ، كان العرق يسبح فوق وجهه العبوس مما جعله أشبه بنائحة وسط جنازة، كان ذلك بالتأكيد سببا لمتاعبه الظاهرة، دعك عينيه مرات عديدة، وكأنه يأمل فى رؤية أكثر وضوحا من رؤيته الخائبة، ولكن هذه المحاولة البسيطة لم تحقق أى نتائج. هنا أخرج من جيبه منديله ذا المربعات الحمراء والبيضاء، والمصنوع من قماش خشن بادى القذارة، وجفف وجهه بكل حمية. اشرقت ، للحظة قصيرة، رؤيته للعالم، فولى عينيه ناحية السراب مما صدمه، لأن ما رآه - باعتبار أن عناصر السراب تحدد رؤيته - كان شحاذا. إنه أجمل شحاذ رآه منذ أمد طويل. كان يتخذ ركنا فى عمارة فخمة ذات طراز جميل من البناء الحديث ، فضلا عن أن فى هذه العمارة يوجد بنك ومحل جواهر. أى أن هذه المعالم الميتافيزيقية تتطلب الحماية ، دون هوادة ، من مثل هذا الوغد. أعاد المنديل إلى جيبه، وظل يرمش طويلا بعينيه، حتى لايفقد رؤيته الجديدة. توجه الشرطى يمينا نحو هذا الوقح، الذى بدت على ملامحه سمات المجرمين. لقد صدرت الأوامر منذ شهر بأنه يجب أن تتخلص المدينة من هؤلاء الملاعين الأوباش الذين يعيشون فى أفخم الأماكن كالنمل فوق قطعة عسلية. إنه هناك وعليه أن يعرف أوامر المحافظ الجديد العديدة - وهو رجل معروف بمبادراته الجريئة -

والأكثر صعوبة عند التنفيذ. كان طموح المحافظ الجديد هو تطهير الشوارع وحمايتها من كل مايمكن أن يمس شرفها - انه يتكلم عن الشوارع كأنها شخصيات حية - وأيضا، من بعض الداعرين والباعة المتجولين أمام شرفات المقاهي. وجامعي أعقاب السجائر وخبثاء آخرين أقل أهمية. لقد أعلن حملته ضد الشحاذين، ذلك الجنس المسالم والمتغلغل بشدة في الأرض. الذي لم ينجح أي من الغزاة قبله في أن يجتثهم. وكأنه أراد بذلك أن يخلص الصحراء من رمالها.

وبصفته موظف ينتمي لدولة قوية. تقدم الشرطي نحو الشحاذ (بدت الملامح المتجهمة لهذا الأخير شاهدا على حالته بشكل يثير الغيظ)، وبدأ في اتباع قواعده المألوفة. لكن الشحاذ لم يتصرف أبدا حسب ماسمعه من سباب،فهو شبه ميت. إنه عجوز ذابل بشكل بشع، ذو لحية رمادية كست كل وجهه تقريبا. الذي اختفى تحت عمامته البالية. وبدت عيناه مغلقتين، واكتست حوافها بهالات سوداء عريضة. مما أضفى عليه ملامح مبهمة وغامضة. انها الملامح المألوفة التي يمكن ملاحظتها في أي شحاذ. بل أكثر. كان يرتدي اسمالا متعددة الألوان ذات أشكال بالغة البهرجة. والتي تناسب بهلوانا أكثر من شخص على شاكلته. هذا العجوز المنحرف، النازح من أصل منحط، يبدو غارقا في نوم بليد، لم يبد عليه قط أنه قد إنزعج من تلك الضوضاء الهائجة التي أصدرتها المركبات العديدة القادمة من الطريق الى المفترق. راح الشرطي، وهو يطلق قذائف الشتائم والسباب، يركل الرجل بقدمه مرة، ثم ركلة مرة ثانية كي يهرول جاريا. وأمام هذا الجمود المستفز. استعد أن يكيل له الركلة الثالثة. هنا رأى الشحاذ يتجاوز مكانه ويتهاوى أرضا. ويتصرف بشكل مزري كأنه بلا حياة، مرت لحظة تصور فيها الشرطي أنه قد قتله فاستبد به رعب، وانتابه احساس يفقد الاتزان. فالشحاذ قد مات، على الارجح. أصابه الحادث بالتفسخ ، فعليه أن يجعله على قيد الحياة. انحنى نحو العجوز، وأطرق على «عمته»، ثم بدأ يهزه بطريقة جامدة وبكل وحشية، كأنه يود أن يهبه الحياة.بدا من الصعب ادراك هذا الموقف الغبي، فجأة شوهدت رأس الشحاذ

العجوز تتخلص من رقبتها بسهولة كأن ساحرا امسكها وظلت ملتصقة بالعمة. لم يتوقف الشرطي عن هزه في الفراغ كأنه نصب تذكاري يدمي. أطلقت الجماهير، التي تجمعت منذ قليل حول بطليّ هذا المشهد، صرخة مرعبة .. واحتجت على هذا الامتهان بإطلاق شتائم مقذعة موجهة الي الشرطي. الذي بدا وكأنه فقد سيطرته على نفسه، راح ينظر الى جموع الصارخين الذين يعاملونه كقاتل. وكأنه شخص ابتلى بتشنج في معدته. كان يلزمه بعض الوقت قبل أن يسترد انفاسه في هذا الصباح الدامي.

لم يأخذ في حسبانه أن في الأمر خدعة. لانه تعامل مع الشحاذ ككائن من لحم ودم وليس دمية صممها فنان واع راح يعرض فنه في هذه الناحية الراقية وفي نيته أن يُحقر من شأن الشرطة، لم يقلل هذا الاكتشاف من غضب الناس. بل زاد من حدته. راحت الجماهير تضحك ساخرة ومستهزئة من هذا الشرطي المنحوس الذي وقع تحت هول المفاجأة. بدا الجمع السعيد وقد اخترقه النصابون كأنهم رءوس نبال، راح اليائس يلتقط أنفاسه المتهدجة، فأخذ يطلق بصفارته سلسلة من النداءات الحادة، مستدعيا زملاءه الشجعان من كل ركن. ولكن هذه النداءات ظلت بلا صدى.

تفرق الجميع، بعد أن نالوا من السعادة مايكفيهم للنهار بطوله. توجه كل منهم نحو هدفه وهو يعلق على الحادث بطريقته. دائما بنفس الروح اللئيمة التي يمكنها إثارة الأوباش وهي ترى ممثل السلطة وقد أصابته محنة.

(٢)

على مسافة كيلو متر واحد، وفي غرفة تقع فوق سطح عمارة تتكون من ستة أدوار تطل على البحر. كان الشاب كريم، مؤلف هذه الملهاة، أبعد مايكون عن الشعور بالتفوق تجاه هذا الموقف الصادر من سلطات المحافظ. انه لايفكر في هذا. فهو الآن ممدد فوق سريره عاريا حتي الجذع وقد انشغلت أصابعه بقصر، خصلة من شعره المتساقط على جبينه. انه يتذكر ببلادة، كسلطان أصابه السأم يسخر من الثروة والمتعة، فيترك كل شيء، ويترك نفسه لهذا السأم الرخو، بدا كأنه يتذوق متعة شهوانية وهو يتأمل خليلة الليل التي وقفت ترتدي ملابسها وسط الغرفة. اكتست شفتاه بابتسامة دامت للحظات. انه يحب امتلاك غانيات ذوات مؤخرات متموجة مثيرة، تتأرجح أمام عينيه من أجل إثارة متعته الخاصة، لايميل للمخلوقات البائسات (التقطها بالامس في الشارع) لم يبد أن سحرها المتواضع يخفي وراءه أي غموض. هذه البهجة البسيطة التي حاول أن يخلقها بموقفه الضعيف والحساس، أخفت حالة من التوتر الشديد، شعر بها منذ أن استيقظ. وكأنه على نفس الحال دائما. يتصرف كريم هكذا دوما كي ينجح فيما يخططه لاكتساب ود عشيقاته العابرات، فان نجاح هذا التخطيط - أو بعضه - لايترك أبداً فرصة للشفقة ولا لخفقان القلوب. لقد اقتربت الآن اللحظة التي عليه أن يكشف فيها لعبته.

لم يكن الشاب كريم في أحسن حالاته، ورغم أنه متعدد التجارب فانه انسان قليل الحظ. يعرف هذه العاهرة الصغيرة التي صحبها الى بيته بعد أن

وضع الشحاذ المزيف عند مفترق الطرق. لن تثير أى متاعب، فهى لا تبدو فتاة فضائح، حتى لو أغضبها. لكن هذا لا يهم كريم، فليست لديه النية في أن يراها مرة أخرى، ثم أن الفشل المتوقع للمهاته لا يقلقه الا بشكل جزئي، فالامور تسير بطريقة أو بأخرى، وما يوده حقا هو التخلص منها على وجه السرعة، بدأت الطريقة البطيئة التى ترتدى بها ملابسها في اغاظته. تعجل أن يراها تذهب وأن يبقى وحده، فقد كفت الفتاة عن إثارته، هناك حوادث أكثر عنفا وغرابة - مما يحدث عادة - عليها أن تظهر فوق سطح الارض . وهو يريد أن يجرب طعم الوحدة، أو يكون في صحبة زملاء يمكن أن يفهمهم، لقد شارك امرأة المتعة، انها تتسم برقة مما لا تتناسب معه، ان هؤلاء الاناث بالتأكيد خلقن لهذا النوع من المزاج الكامن في درب الشيطان، انهن لا يستطعن قط إدراك القيمة الحقيقية لكل غباءات الطبيعة للعين ، على سبيل المثال، فيما يتعلق بشخص مهم كالوزير، فإنهن يبدون جادات في كافة الأمور الهزلية الخاصة بطغاة السلطة، وهذه مثل الأخريات، فلم يعد لكريم مايقوله لها .

لم يكف عن تأملها، وهي ترتدى ملابسها، خصها بابتسامته كأنه سلطان أصابه السأم، فالفتاة الآن ترتدى جوربها، ويبدو وجهها المشرئب، وعنقها الطويل، ثار كريم في صمت، وبدا له أنها تنظر اليه بنوع من العتاب، هل تشك في شيء؟ أخيرا ارتدت فستانها وبدت متأهبة.

لقد حانت لحظة المكاشفة، اكتسي كريم بمظهر يليق بسيد كريم اعتاد السخاء، وكأنه ينزه نفسه عن أى مساومة، وهو يقول:

- عزيزتى زوزو ! قبل أن تذهبى، مدى يدك فى جيب سترتى وخذى ماتريدين.

ظلت الفتاة بلا حركة، لعلها تبحث عن السترة، ولكنها سرعان ما أخفضت عينيها وكأن حالة من الخجل أصابتها. انها فتاة صغيرة، ذات وجه طفولى، وملامح مهيبة ومؤثرة، أدرك بلا أى معاناة وبأسلوبها المؤثر، أنها مستجدة في مهنتها، ترتدى فستانا من القطن المطبوع . وبتحفظها المتواضع ومساحيقها

الخفيفة، بدت أشبه بتلميذة منها كغانية. بدت لها مغامراتها مثيرة للحزن، فبالامس هربت من شرطة المحافظ عندما التقى بها كريم ودعاها – متبعا أسلوبه المتخايل المألوف – لقضاء الليلة في شقته. حقا إن كريم قد كسب بهذا النداء الانيق رضاها. وكأنه يعطيها الامتياز بأن يصحبها الى بيته. تركت الفتاة نفسها لهذا الاغراء، وهي التي لم يكن لديها أي خيار.

ظلت صامتة مترددة. إنها لحظة مثيرة للشفقة. كانت سترة كريم معلقة فوق طرف مقعد على مسافة خطوات من الفتاة، لكن لسوء الحظ فإن الجيوب تقريبا فارغة. فالنقود التي بها لاتكفي لإطعام عصفور، ولا مخلوق ضامر. راح كريم يتأمل الفتاة، وقد أصبح فريسة لشك يتنامى كل ثانية أو كل لحظة وراء أخرى. فكيف ستتصرف ؟ هل ستقترب من المقعد وتفتش جيوب السترة ؟ لم تجرؤ الغانية أن تنطق بكلمة ! لم يعاملها كأنها أميرة ! ألم يكن عليها أن تصدق المشاعر السامية التي ظل يعاملها بها طوال ليلة حب لاتنتهي. تذكر كريم تأوهاتها النارية المليئة بالمغالاة لدرجة جعلته يطلب منها الزواج، لم يدرك أن شيئا ما يعتمل فيها. هل تكدرت مشاعرها الآن وتبعا لحركاتها السافلة يمكنها أن تهدم نموذجا مثاليا بدأ لتوه؟ لاشك أن هذا سيكون أمرا غبيا بالنسبة لها.

ساد الصمت الرهيب. استعد كريم لفتح فمه ليقول لها بعض الكلمات، حاول أن ينقذ الموقف بوسائل أخرى، إلا أن الفتاة تكلمت أخيرا:

– آه . ! أشكرك لاداع.

لقد كسب الرهان. فالآن يمكن لكريم أن يلح بلا مخاطرة. مدد جسمه، وغمس رأسه في الوسادة ثم تثاءب في نشوة:

– لكن أنا أصر. هيا، خذي ماتودين. وإلا غضبت.

قالت مرة أخرى. ، الآن لست في حاجة لشيء.

بدا كريم مغتاظا لهذا الرفض. وانتابته حساسية:

– زوزو. انت تؤلمينني. أعتقد أننا لسنا بغرباء عن بعض. فكل ما معي لك، الظاهر أنك لم تحبيني ؟

اعتذرت الفتاة كأنها قد تنبهت للخطأ الذى ارتكبته تجاه الشاب الصغير. -
لا أريد أن أهينك، لكن من المستحيل أن أقبل نقودك، فقد كنت لطيفا معى.

أجاب كريم الذى نجحت كلماته الاخيرة فى تنفيذ خطته:

- بكل بساطة، فالحب هو الذى جعلنى اتصرف هكذا . لا أريد أن أجبرك، تصرفى كما تشائين فأنت فى بيتك، فأنا اعتبرك كزوجتى.

ارتسمت عليها ابتسامة حزينة، ربما بسبب تضخم هذه الاكذوبة وربما لانها أحست باستحالة أن تكون زوجته. وبدون أن تنطق بكلمة، امسكت حقيبة يدها التى كانت فوق المائدة. وقررت أن تنصرف، لقد نجح كريم فى أن يجعلها تحس أنها شابة محترمة، وإلى حد ما تلاشى مظهرها الضائع. يمكن أن تكون ابتسامتها متقلبة. فهى المرة الاولى التى تنظر إليه بعد ليلة الحب الطويلة ليس عبر ستار الرغبة. ولكن كمخلوق آدمى مطارد، لا مأوى له. هذه المعاينة جعلته من الصعب أن ينسى موقفه كسلطان متوج، يحب الغانيات ذوات المؤخرات الرخوات والشهوانية غير البادية .

لم يبق الآن فى الغرفة سوى مشهد متوتر وحقيقى. فبلا شك، فهذه الفتاة تخفى بداخلها مأساة. لم ينتظر كريم هذا الهجوم اللئيم من القدر، فما فعله بدا له أمرا وحشيا. تساءل «ياله من أمر محزن. فها أنذا فريسة للندم».

حاول أن يهرب من هذا الضعف، لكن الشفقة التى أحسها بدأت تتعمق فى احشائه. من الضرورى أن يفعل شيئا ما لحساب الفتاة التى أصبحت مفروضة عليه. عليه أن يساعدها بأى طريقة، وألا يتركها ترحل هكذا . لكن كيف ؟

استند على كوعه، وألقى نظرة مليئة بالأمل على سترته. كأنه يفكر فى اكتشاف كنز منسى داخل الجيوب. وفى اضطرابه انتظر حدوث معجزة. فكر بسرعة فى كل ما يمكنه أن يقدمه لها بعيدا عن النقود. كى يبرهن لها عن رقته، وأخيرا . اعتقد أنه وجده بكل بساطة. سوف يسألها عن اسمها . فـ «زوزو» هو الاسم الذى أعطاه كريم لها اثناء كل غزوات الليل. ولاسباب تسهيلية. وأيضا حتى لايحتفظ منها بأى ذكرى محددة. حسنا . هذه الفتاة تتصرف بشكل مختلف. كان عليه أن يبكى عندما انتابته الفكرة انها تعمدت ألا يعرف اسمها . فجأة شكلت

معرفة هذا الاسم بالنسبة له غموضا بالغ الأهمية.

سأل برقة متناهية في صوته

– ما اسمك ؟

ترددت قبل أن ترد. أحست أنها قد صُدمت بهذا الاهتمام المفاجيء، قالت.

– اسمي قمر.

– حسنا ياقمر . أنا ممنون لمعرفتك. مري عليَّ قريبا . سوف أعتمد عليك.

قالت والفرحة تشع في عينيها: حقا ؟ ألن أزعجك ؟

– أبدا . على العكس. فأنت هنا كأنك في بيتك .ألم أخبرك بذلك ؟

– كم أنا سعيدة للغاية . سأذهب الآن.

كان عليه أن يقوم. ويذهب إليها ويقبلها . ولكن كريم تردد أن يتورط أكثر في هذه المغامرة، فهذه الفتاة قد حطمت قلبه قليلا. ويمكنها أن تجعله مهووسا . لم يتحرك . قالت وهو لايزال نائما:

– سلام عليكم .

وقبل أن ترحل. انتابها احساس انساني نادر كي تشكره على الليلة التي قضتها تحت سقفه. لدرجة اعتقد عند سماعها أنها بالغة الشرف والكرم.

تخيل كريم أنها قد خمنت، وهي في حيرة، أن كلماتها الخائرة تقطر سخرية بشكل بشع. ولكن هذا غير محتمل بالمرة. فكل شيء في داخل الفتاة الصغيرة يتنفس بجلاء وشرف. أحس كريم بالخجل لأنه أفسد طهارتها، استبد به الندم فقد تملكته على طريقتها حتى الاعماق ووعى لذلك جيدا .

فتحت قمر الباب وظهر السطح الغارق في الشمس. انفتح الباب الى داخل الحجرة. قال كريم:

– دعي الباب مفتوحا .

وبينما هو يسمع الباب الخارجي ينغلق على الفتاة، أحس كريم بأنه يتخلص من عبء ثقيل. أخيرا يمكنه أن يتنفس على راحته قفز من السرير. ثم راح يضيق حبل سروال بيجامته. وخرج الى السطح، انه يسكن هذه الغرفة منذ حوالي

اسبوع حيث يتمتع بمنظر البحر الرائع، انه يختلف تماما عن مسكنه القديم المظلم الذى كان بلا هواء ، والذى يقع فى أكواخ الأحياء الفقيرة. يستيقظ كل صباح تنتابه مشاعر الفرحة العارمة ، وأول شىء يفعله هو الخروج الى السطح، كى يتأمل المنظر الذى يصيبه بمشاعر متميزة. فهو لم يشبع من مثل هذه الاطروفة. حتى قراءة الصحيفة التى تعتبر حتى الآن العنصر الاساسى لمتعتة - حول وقائع عالم خصب ملىء بكل أنواع الجنون - أصبحت بعد هذه الدورة من الأمور المألوفة. وفى طابقه السادس يبدو كأنه مكتشف فى أعالى الجبال ، أطل كريم على المدينة المتهالكة المبانى. حيث تزدهر حشود الأغبياء والأوغاد. هذا المنظر العام لمجتمع ينحاز أكثر للصوص الدمويين الذين يسببون له معاناة لا حدود لها. فضلا أنه يعتبر أن مسكنه الجديد يجعله أشبه بمراقب حيث يمكن لمزاجه أن ينشرح .

استند على حاجز الطوب الاحمر الذى يحف السطح وتأمل البحر .. حتى تلك السحب البعيدة التى تسد الافق. كان البحر مسطحا ولامعا كالمرآة. وعلى يمينه ويساره تمددت المدينة. وهى ترسم بعماراتها الحديثة ذات الألوان الواضحة، الصورة الخادعة لمدينة مزدهرة. لايمكن للقادم من عرض البحر، أن يشك أن خلف هذه الواجهة الشديدة اللمعان تقع الأحياء الشعبية بأكواخها القذرة وقمامتها الوفيرة. أحس كريم بحرارة الشمس فوق جذعه العارى، فتنفس بعمق. ثم فرد قامته. ونظر أسفله الى بقايا الكورنيش المسفلت الذى يمتد على الشاطئ بطول عدة كيلو مترات . انه طريق واسع مزدوج. رصيف مصنوع للمتنزهين الذين يأتون فى المساء باحثين عن نسمات البحر. وقد طلى بطبقة من الجبس، تعبر سيارات عديدة قادمة من دروب متشابهة يراها من أعلى، أشبه بألعاب ميكانيكية. وأحيانا تتجسد سعادة كريم عندما يبدو أحيانا حوذى نائم فى عربته الحنطور كأنه ألعوبة بشرية فى هذه المطاردة الجهنمية نحو العدم. لكن من النادر أن نرى انسانا فى راحة. فالشرطة تطارد الكسالى والعاطلين. تعاملهم كمجرمين، إنها الحضارة، طراز من الحياة السهلة الطيبة، عليها أن تختفى. ففوق الرصيف المخصص للمتنزهين. يمشى بعض المارة المتعجلين للوصول الى حيث لا يعلم. يتحركون بخطى سريعة. هناك شىء من التغيير فى المنظر. فهو لم يلحظ أى أثر لصعلوك نائم فى الشمس ، ولا أى جسد متمدد أو حتى منحنى فوق الارض . لقد أصبحت

الشحاذة عملا سريا . أين إذن سيقف الشحاذون ؟ يمكنهم أن يعملوا الآن فى أحد المصانع.

يا الحزن ! فان غياب الشحاذين من طريق الكورنيش دليل عصر جديد. لقد نجح المحافظ الجاهل، بأفكاره العبثية، فى تغيير المظهر الأساسى للمدينة. تساءل كريم عَمّ أصاب الدمية التى وضعها بالأمس فى وسط الحى الإفرنجى. هل اكتشفها أحد ؟ أحس بالأسف أنه لم يستطع أن يحضر لحظة قبض الشرطى على الشحاذ المزيف. لقد كانت تلك فرصة للمزاح. هل يمكنه أن يثير بعض الصدى فى الصحافة. ذلك ليس مؤكدا. فكل الصحف فى خدمة المحافظ. ولا تجرؤ أبدا على نشر خبر تجعل منه سخرية للأطفال الصغار. لا يهم. فالمحافظ سوف يعلم بهذه المحاولة التى تحولت الى ظاهرة سخيفة. فرأسه المنفرجة الزاوية سوف تنفجر . لن ينتظر تأكيدا ليكون محل هجوم بطريقة غير عملية. إنه سعيد حين يقبض على بعض أعضاء الحزب الثورى السرى الذى سبب لسنوات بعض المتاعب للمحافظ الذى فى السلطة. والذى عليه التخلص من كل الدعاية المضادة لمصالحه. لم يعرف سوى نوعٍ واحدٍ من الأفكار المدمرة: أفراد متشددين فى حقدهم. يمجدون أعمالهم. ومستعدين أن يموتوا من أجل سيادة القانون والعدالة ، باختصار فإن الناس الذين يأخذون الامر بجدية مثله. يمكنهم أن يعملوا على تفريغ المدينة بنوع مجهول من الثوار، ثوار ماكرين أصحاب مزاج عال. ويعتبرونه أشبه بدمية – هو وأمثاله فى أنحاء العالم – من أجل ألا تكون أفعاله وحركاته سوى تشنجات عصبية وزفرات بدت لكريم أشبه بفباءات كبيرة. وجد نفسه مصابا بحالة من العصيان لايعرف أى أسلوب يسلك. رغم أن الشحاذ المزيف صنع ملهاة لاتنقصها الدعاية. ليست سوى أمر تافه مقارنة بالآلة التى لا حد لها من الخبل. كان كريم يعرف أن صديقه ورفيقه الحميم «هيكل» يتمتع بالدقة والكفاءة وأنه يمكنه أن يحطم سلطة المحافظ للأبد.

ظل هيكل شخصا غامضا فيما يتعلق بتفاصيل هذه المؤامرة الساخرة دافعه فى ذلك هو اقتراب الكفاح الشرس الذى عزم هيكل أن يعلنه. لقد قرر هيكل أن يقابل خالد عمر بعد أن كلفه برسالة لهذا الاخير .. كى يحدد له موعدا هذا

المساء. هذا الموعد يعني أن «هيكل» توصل الى خطة هجومية. وأنه في حاجة الى دعم مادي كي يجعلها قابلة للتنفيذ. فخالد عمر هو الشخص الذى يمكن للنقود ورغد العيش أن يجلبا له فكرة خفية. إذن، ففى هذا المساء سيعرض هيكل مشروعه. وسيتم اللقاء في مقهى بالحى الافرنجي. أصر «هيكل» أن يقابل التاجر وجها لوجه.- بلا شك - فهو يريد أن يقلل من نفوذه،. كان كريم واثقا من نتيجة هذا اللقاء. فسوف يقع خالد عمر بالتأكيد تحت سحر هيكل الذى لايقاوم، فهيكل شخص يختلف عن كل الشخصيات التى قابلها في حياته.

لايزال الوقت مبكرا للذهاب لمقابلة التاجر. فهو لايذهب الى مكتبه إلا في ساعة متأخرة من النهار. وبينما هو ينتظر، انحنى كريم على جدار السطح، وراح يفكر فى المرارة المتزايدة التي أصابته هو وأصدقاؤه بسبب المحافظ. فجأة هبت عليه ذكرى العاهرة الصغيرة وكأنها قد ولدت قصة حب كبيرة ، استطاعت أن تملكه. وعد نفسه أنه لو رآها مرة أخرى فى الليلة القادمة. فسوف يعطيها بعض النقود وهدية ما . وما ان لمعت هذه الفكرة المؤثرة حتى عاد الى غرفته وتوجه نحو ركن تتكوم فيه طائرات ورقية من كافة المقاسات والألوان. بعضها لم يكتمل تصنيعه بعد. انها هواية كريم المفضلة، منذ عدة أشهر، وهو يصنع طائرات ورقية يبيعها الى تاجر حلوى واخشاب شيش - والذى يبيعها بدوره الى زبائنه الأطفال - فى حانوته بالشارع المجاور. فى زمن الطائرات الحقيقية. وجد كريم أنه من الرائع أن يرد بسرعه على تقدم العالم المنحوس المصاب بالهذيان لكل ماهو آلى. فبدأ يصنع طائرات ورقية، كألعاب رائعة وتافهة، فيهلل بفرحة غامرة حين يرى فى السماء هذه الأشياء الخفيفة الهادئة التى تسخر من المركبات الثقيلة الطائرة، والآلات الضخمة التى تفتقد الشاعرية.

تأمل الركام لحظة. ثم أخرج واحدة، لاتزال فى حالة هيكلية. أفرع من البوص المقصوص مثبت في وسطها بواسطة خيوط تصنيع طائرة ورقية عملاقة، أمسك مقصا، وبعض لفائف من الأوراق الملونة، وطبق فى داخله تمتزج المياه بالدقيق كي يحصل على لصق ثابت. عاد الى السطح ومعه العديد من الأدوات،

ووضع فوق الأرض الصلبة هيكل الطائرة الورقية. انحنى. وبدأ في العمل بنفس الجدية والانهماك كأنه عالم يبنى صاروخا يستطيع السفر الى القمر.

وبينما هو غارق في عمله، لم ينتبه كريم الى تطفل شخص فوق السطح. وقف وقد بدا مثيرا للرثاء أمام السلم، يحاول بلا جدوى أن يلتقط أنفاسه. يحمل هذا الشخص الشاحب واللاهث، الذى فى الخمسينات من عمره ملفا تحت ذراعه ويمسك بيده مظلة مغلقة، استند عليها وهو يترنح. راح يلهث للحظة، ثم هزته دفعة من السعال فشلت فى خنقه مرات عديدة، رفع كريم رأسه على أثر سماعه السعال الأجش وراح ينظر فى غباء وخلسة. فهذا الرجل ينظر اليه وكأنه وجد شخصا يعرفه وسط حشد من الناس، دون أن يسبب له أى متعة بالمرة.

- هل أنت كريم ؟

- أجل . أنا . ماذا هناك ؟

قال الرجل : شرطة . أنا مكلف بمهمة خاصة بك.

أومأ كريم بحركة واحدة دون أن يبعد عينيه عن الرجل . إنه شرطى حقيقى فى هذا القيظ يرتدى ملابسه وكأنه وسط برودة شتاء قارس : بدلة صوفية سميكة داكنة ، وتلفيعة من الصوف ملفوفة حول الرقبة. بدا وجهه النحيف مهيبا ومهموما، ولكنه غير جاف. يكسوه نوع من التجاعيد يمكن أن تميزها لدى بعض المرضى المحكوم عليهم بالموت قبل الأوان . بدا على شفا الانهيار . فقد شكلت الأدوار الستة التى اضطر أن يصعدها خطرا حقيقيا بالنسبة لسنه. لقد منعته الشمس العمياء التى غمرت السطح من الرؤية جيدا .. فتح مظلته، وتحت ظلها تصفح الشاب طويلا. هذا الموقف المضحك كان له الأثر المبهج على كريم ، فتلاشت مخاوفه ثم تقدم نحو الشرطى ، وسأله:

- فيم تتعلق هذه المهمة ؟

- هل يمكن أن أدخل غرفتك. أود أن أجلس فلدىّ ما أقوله.

قال كريم : إنه لشرف . تفضل.

أغلق الشرطى مظلته ودخل الغرفة يتبعه كريم وهو يتساءل عن الاسباب

التى وراء هذه المهمة، فمنذ زمن طويل لم يتعامل مع الشرطة. لعلهم عرفوا بسرعة أنه صاحب الشحاذ المزيف، إنه أمر غير قابل للنقاش. ترك نفسه للقدر. إنه لأمر معقول، بدا مظهر الشرطى المصاب بالربو وداء الصدر كأنه فى حالة أفضل.

لم يفقد كريم السلوك المهذب :

– هل تتفضل سعادتك وتجلس ! هل اجرؤ أن اعتذر لك عن فوضى المكان، كدت أن أرتبه.

– لاتهتم . فليست هذه زيارة ضيافة.

جلس الشرطى، وهو لايزال يلهث. ولكن بشكل ضعيف، أمسك كريم سترته، وراح يتذكر أنه كان عليه أن يتصرف بوقار أمام ممثل القانون. هل عليه أن يموت ويختنق بالربو، فمنذ أن تعرف على هيكل. أو منذ أن بدت له الحياة فى ثوب ساخر مليئة بالغضب الصاخب. اعتزل كريم وأقام فى بيته بكل كرامة بعيدا عن رعاع البشر الذين تمسكو بقيود السلطة. عليه أن يتصرف كغبى، وأن يبدو أكثر غباء منهم. أنها الطريقة الوحيدة لانتباذهم. لقد أخبره أن الكرامة ليس لها ثمن سوى بين البشر الاسوياء الذين يكنون فيما بينهم مشاعر احترام متبادلة. ويعلمون أن إحتفاء المرء بكرامته أمام شرطى أو ممثل للسلطة، لايعنى أبدا شيئا . هكذا حدثه هيكل وهو يحاول أن يحتفظ بكرامته أمام كلب مسعور. فالسلوك الذكى الوحيد أمام كلب مسعور. هو الهرب. أما بالنسبة للعديد من البشر، فى هذا العالم المتسع، فعليهم أن يتصرفوا بكرامة. لأنهم مختلفون.

زرر كريم سترته، ثم جلس وقال بمظهر شخص يتوقع حديثا على جانب كبير من الأهمية :

– هانا أسمعك.

فتح الشرطي الغريب ملفه، وسحب ورقة، وبدا كأنه يتفحصها .

– هل تسكن هنا منذ وقت طويل ؟

– اسبوع تقريبا. كما ترى لقد أقمت هنا وأنوى تأثيث هذه الغرفة بطريقة حديثة. أنا في إنتظار نجار ولكن لسوء الحظ، لقد ماتت زوجته لتوها، وتركني هكذا. سوف أستدعي نجارا آخر.

أطلق الشرطي تنهيدة، وهز رأسه. وكأن من الصعب عليه أن يهدم هذا الوهم الجميل، وقال.

– من الأفضل أن تهجر هذا المسكن.

– لماذا ؟

– لأنك لايمكنك أن تستمر في السكن هنا. فهذا ممنوع.

– كيف ممنوع ؟

إنكمشت عينا الشرطي، ونظر الى كريم وكأنه سيبوح له بسر مرعب :

– هل تعرف ياعزيزى أن هذه العمارة تطل على طريق حيوى !

رغم أن هذا الاعلان قد أثار طبيعته الساخرة، فإن كريم ظل رابط الجأش لم ترتسم أى إبتسامة على وجهه. بل على العكس، بدا متأثرا بشدة لما سمعه. وبلهجة نادمة، لمواطن مهتم بشئون البلاد رد :

– الكورنيش طريق حيوى ! لم أكن أعرف، سعادتك ! بشرفي، لم أكن أعرف .

– حسنا، هانا أعرفك، إعرف أن الكورنيش طريق حيوى من الطراز الأول ويسلك هذا الطريق يوميا رجال سياسة، وسفراء الدول الأجنبية، وعسكريون مهمون.

قال كريم : حقا . ولكنني لا أدرى ما علاقتي بهذا ؟

– ألا ترى ذلك حقا ؟

– لا ، والله ! لا أرى، أحاول أن أجتهد ولا أعرف.

– إذن سأضطر أن أعلمك . فأنت رجل خطير.

– أنا ! ماذا يمكنني ؟

أضاف الشرطي : لا شيء الآن . لايمنع أنك في القائمة السوداء. ونحن مهتمون بك. أليس كذلك ؟

– فعلا. ولا انكره. ولكن ذلك كان من سنوات، ابان الحكومة القديمة.

هز الشرطي رأسه من جديد . تظاهر أنه يمتص شفتيه . وكأن مثل هذه الامور أقل غباء. حقا، كم يتسم هؤلاء الثوار بسذاجة واضحة. قال :

– لو لم تكن تحب الحكومة القديمة، فلا يوجد سبب كي تحب الحكومة الحالية. فنحن نعرف أصحاب الرءوس العنيدة من أمثالك.

أثارت هذه التصريحات المعلنة ضمنيا دهشته، وأصابته بالصمت للحظة، فلماذا يرد على هذا ؟ لِمْ يترك نفسه لهذا الشرطي المسكين كي ينهكه بأموره الخارقة. عليه إذن أن يمسك زمام الأمور.

أحتج بحسن نية :

– أى خطأ، سعادتك ! أنا لا أحب الحكومة ! يجب أن يكون المرء أعمى حتى لا يحبها. أنظر اليّ. هل أنا أعمى ؟ أقول لك بكل بساطة أنني أعتبر الحكومة الحالية مثل أبي. أي دليل يمكن أن أقدمه لك لأؤكد احترامي لها ؟

– بالمناسبة . أين أبوك ؟

رد كريم : لقد مات ، فأنا يتيم.

ورغم أن هذه المحاولة بدت له يائسة، ورغم أنه يريد أن يكشف دوره كثائر تائب. فإن كريم وجد نفسه على وشك البكاء. وضع جبهته بين يديه. وبدأ في النهنهة وهو يجهش، ينطق بكلمات مكسورة بأنه قد جنى عليه بأسه وأحزانه منذ طفولته الرقيقة. لكن هذا المجهود الذي بذله لم يقنع الشرطي تماما، بدا مهزوزا.

فظل صامتا، منتظرا أن يخفف الألم الذى جاء فى غير وقته، ولكن كريم صدمه بضربة قدرية حين كلمه عن أمه المسكينة التى ماتت أثر اصابتها بمرض خطير (يبدو أنه كان «ربو») والذى وصف أعراضه كأنه طبيب متخصص.

وتبعا لهذا الوصف، اكتست عينا الشرطى بظل من الحزن، وبدأت ملامحه تمتلىء بتعبيرات حزينة مكتئبة لقد ظل يمارس مهنته ثلاثين عاماً ولم يعد لديه ما يتعلمه عن كوارث القدر. لقد ألقت به شكوكه عن جدوى الاشياء فى الدرك الاسفل، فى مهنة يكون الجنون والقبح هما الفضيلتان الوحيدتان ، فضلا عن مشاعر انسانية عميقة تجمعه مع اخوانه البشر. هذا الشاب يمكن أن يكون إبنه. فقد جرب المعاناة المزيفة والحقيقية :

– مم تعيش ؟ هل تعمل ؟

رد كريم : طبعا. أنا صنايعى.

– ماذا تصنع ؟

– أصنع طائرات ورقية.

– أنت تسخر منى.

– كيف اجرؤ على ذلك، ياصاحب السعادة ! هذه هى الحقيقة خالصة. ليس هذا شيئاً غريباً . سوف أريك نماذج مم أصنع.

وقام بكل حيوية واقترب من ركن الغرفة التى رتب فيها طائراته الورقية. وأمسك اثنتين – واحدة بكل يد – ذاتا أشكال وألوان مختلفة ثم رفعهما عاليا، كى يمكن للشرطى أن يعجب بها :

– ها هى . أنظر الى هذه الطائرات الورقية . فأنا الذى صنعتها. لا يوجد لها مثيل، حتى فى الخارج . لقد طُلبت منى فى أنحاء العالم. وسوف أضطر قريبا الى طلب مساعدة.

تأمل الشرطى ـ الذى لم يشأ أن يصدق هذه القصة ـ الطائرتين الورقيتين التى لوح بهما أمام عينيه كأشياء خارجة لتوها من أحلام. ورغم رغبته أن يكتب محضرا مفصلا. فانه رأى استحالة أن يشير فيه إلى صناعة الطائرات الورقية

كعمل شريف. ومع ذلك تساءل عن هذه الطائرات. هناك بعض الناس يصنعونها. وهي ليست نتاج الطبيعة. ولكن كيف يبلغ رؤساءه أن ثوريا قديماً، يملك روح التدمير انتهى أمره إلى هذا النوع من العمل. دون أن يثير أي شبهة ؟ قال :

– ليس من الجدية أن أذكر هذا في محضري. وإلا بدوت كأنني أسخر من السلطات.

– ومع ذلك، فليس هناك شيء غير ذلك، إنه عمل متواضع بالتأكيد. ولكنه يبعث البهجة في قلوب الأطفال. آلاف الأطفال الذين يتسلون بهذه الطائرات الورقية. كيف يمكنك أن تقترب مني. سعادتك، وأن تجعلني أهتم بأن أصنع بهجة الأطفال ؟ ليس الأطفال سوى ابطال المستقبل. وأنا أعرف أنه بالنسبة لصول قديم فإن هذه الطائرات الورقية تعد من اعمال الطفولة. عندما نتعمق في المشكلة، سنلاحظ أن الأطفال الذين يستخدمونها ينشغلون في هذه الرياضة السلمية، إنه عمل وطني. وظاهرة اجتماعية صحية ستصنع منهم مواطنين صالحين قريباً. عليهم أن يحترموا القانون ، لعلك أدركت بسهولة انني أعمل لمصلحة الوطن.

هذه الخطبة الطويلة سببت الكثير من الألم للشرطي. فقد أدهشه هذا الشاب كثيراً. فلو لم يكن ثوريا. فهو على الأقل مجنون. فكر الشرطي في محضره. فقد أدخله الشاب في متاعب لا حصر لها. قال كريم بعد صمت : إذا سمحت لي..

– تفضل.

– هل لديك أطفال ؟

ها هو يدخله في مسائل خاصة. الآن، هل سوف يسأله ان كانت زوجته جميلة أم لا ؟.

– نعم .لديَّ اطفال . ليحفظك الله !

– أي أعمار يبلغون؟

– الكبير في الثالثة عشرة

– يا للصدفة العجيبة ! هل تسمح لي أن اقدم له احدى الطائرات سيكون هذا بالنسبة لي مصدر شرف وفرحة.

قاوم الشرطة، ولكن بكل أدب، وبلا مباهاة.

– إذا لم أكن قد تجاوزت الحد ؟ فهذه محاولة لرشوة موظف سوف أسجل هذا في محضري.

هتف كريم : رشوة ! لتحطمني السماء ! لقد أهنت سعادتك مشاعري . صدقني أنا أحب الاطفال كثيرا . لدرجة أنني عندما أرى أحدهم .تتذرف الدموع من عينيّ . لا أفهم كيف يمكن أن تسمى هديتي رشوة لموظف، إنها بالنسبة لي شئ عزيز ، ومشاعر نبيلة ونقية . سوف أكون حزينا لو رفضت هديتي المتواضعة ومن جديد أوشك على البكاء .

وخضعت مشاعر الشرطي لاختبار قوي . فكل ما يتعلق بهذه القضية بدا مبهما ، بعيدا عن الروتين المألوف . فهل هذا الشاب مخلص ؟ لقد كاد الشرطي ان يقتنع بهذا . فلو كان واحدا من الثوار المتكابرين المتصلبين المتطرفين ما تكلم بهذه اللغة . وماذرف الدمع . انه واثق أنه لم يخدع . الغريب أنه يعرف لماذا سبب له الحزن ، ماذا سوف يصبح العالم لو شرع الثوار في التوبة ، والمغفرة ؟ بدا له أن نوراً أضاء في مكان ما .

وضع كريم احدى الطائرتين فوق الكومة وظل يمد الأخرى الى الشرطي في توسل . وقد اكتسى وجهه بتعبير من المعاناة النفسية المثيرة للرثاء .

أصابت الطبيعة الرحيمة الشرطي بالحرج . أحس أنه قد ارتكب حماقة وأنه انسان أقل تحضرا، عليه الا يرفض هدية مقدمة له في مثل هذه الظروف .

ربما أن بساطة الهدية تدفعه الى قبولها . سعل وهو يجلي صوته :

– ليكن . اتفقنا ، ولكن سوف آخذ الصغيرة .

رد كريم : أنا في خدمتك . فقد غسلت عاري .

وبينما يمد الشرطي ذراعه ،، دعاه للاختيار ، وبعد لحظة من تردد

الشرطي . جاء اختياره على الطائرة الورقية الصفراء ، واضعا في حسبانه مشكلة المواصلات . فقد رأى نفسه يجرجر هذه اللعبة الضخمة حتى منزله . لم يخف ارتباكه . قال كريم .

– بكل امتنان ، آمل أن يتسلى الأطفال جيدا .

قال الشرطي وهو يتجه نحو الباب : اشكرك باسمهم ، عليّ الآن أن انهي محضري . سوف يتم استدعاؤك قريبا .

رد كريم : لقد اسعدتني زيارتك ، صدقني ، أنا ممتن كثيرا .

وخرج مع الشرطي الى السطح . ثم اصطحبه الى باب السلم . وهو يقدم له عشرات التحيات والانحناءات . وقد احتفظ بسلوكه الجاد والوقور لدقائق . ثم فجأة انطلق في ضحكة مجلجلة .

لم يستطع أن يوقف نفسه عن الضحك . فقد أصبح الكورنيش طريقا حيويا ! آه ايها الاقذار الانجاس ، انهم يملكون طريقا حيويا الآن . ياله من افتراض ! كل هذا كي يعلي من أهميته . وكي يجعله يترك المنزل لسبب مجنون ! لقد بلغ السيل الزبى ! انه على عجالة وعليه ان يرد على هذا التهديد . ان يترك نفسه تنفجر ، ولن يعطيهم هذه المتعة . أولا . كان عليه ان يتصرف مع هذا الشرطي قبل ان يخط محضره . اعتقد كريم انه قد سيطر عليه تماما ، ولكنه لن يعرف أبدا كيف انتهى بأن وافق أن يأخذ الطائرة الورقية . فلماذا لا يوافق على شئ آخر ؟ قرر كريم ان ينقل كل الحكاية الى خالد عمر . وأن يساومه . فهو الوحيد لاسباب عديدة ، الذي يملك أدواته يتصل بالشرطة أو برؤسائهم ويمكن لخالد عمر أن يقدم أحسن الرشاوى مغلفة للموظفين . جمع كريم عدة شغله وأعادها الى الحجرة . ثم ارتدى ملابسه على عجالة، فقد حان وقت زيارة التاجر.

عندما وجد نفسه خارج المنزل . وقف يفكر لحظة وهو يتأمل الكورنيش بنظرات ماكرة ، واستبدت به رغبة عارمة ان يتبول على الطريق الحيوى .

(٣)

بدأ خالد عمر- وهو شخص أمي - في التجارة في مكان ينهي فيه التجار عادة عملهم: السجن . حدث ذلك منذ بضع سنوات. لم يكن سوى رجل حاف، يقرصه الجوع. وينام على الرصيف. كان يعيش على النهب والتسول، ولكن العناية الإلهية ادخرت له مستقبلا زاهرا .. لقد قُبض عليه في حالة تلبس وهو يسرق حافظة أحد المارة، وحُكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا مع التنفيذ، هذه الظروف البائسة دفعت به الى الثروة. فخلف جدران السجن ولدت موهبته وأنطلقت. فتخلص من وساوس قلة الطعام، ولم يعد يشكو ندرة الرفاق أحبطت روحه، لكنها ظلت متيقظة. ارتبط بمجموعة من الأشياء اتاحت له الفرصة. نظر حوله واندهش لكل هذه الظواهر الاقتصادية التي فرضت نفسها على مجتمع حي في آنية مغلقة. فالطريق القذر الذي ادى به الى السجن قد مس شغاف قلبه ولكنه لم يشارك ابدا فيه. فراح يشتري بالأجل. ويبيع بسعرأعلى مما إشترى. أدهشته هذه العملية.. انها أول ربح في حياته. لايبذل فيه مجهودا . وبعد وقت قصير أصبح مضاربا حذرا واكتشف أبعادا غريبة لقوانين العرض والطلب. وفي الأشهر الستة الأولى سيطر على كل المقدرات، فرض مسألة السعر كما يشاء فاستولى على كل أنواع المؤن. والسجائر،، والمخدرات. وأحيانا النساء. والسجانين، والمجرمين. فارضا سلطته دون أي عجرفة . بمعنى أنه توصل أن يجعل السجن مصدرا للاقتصاد القومي.

وعند خروجه من السجن، كان ثريا يملك النقود. وسرعان ما ارتدى البدل. والشرابات، وقص شعره بما يناسب طربوشه. ثم أجر محلا. ودخل في العديد من

العمليات القانونية – وعمليات أخرى ليست سوى بين بين – ولازمه حظ طيب، إنه الآن يملك عمارات عديدة، وأراضي واسعة في المناطق الأكثر خصوبة. واستكمل عمله دون أن يبذل أي جهد، تمثلت كل أنشطته في محادثات تليفونية مع ناس لم يرهم قط. ورغم نجاحه فقد احتفظ وراء ثرائه الخارجي واناقته المنفرة باسلوب رجل له نزواته، ولغته الشعبية. فلم تربطه مودة سوى مع المتشردين، ولم يكن يخرج إلا في صحبة العاطلين الذين لا عمل لهم وأمامهم متسع من الوقت. وفتحت الطريقة التي كسب بها كل نقوده عينيه على خداع هذا العالم. وفهم أن ما حدث له لا يمكن أن يكون له مكان الا بين المجانين واللصوص.

كان مكتبه صورة لروحه الخشنة، يقع في حارة من حي الجمرك. وكان قد تخلص من كل أوراقه القديمة وكتبه الرخيصة واشياء أخرى سخيفة من هذا النوع. المخصصة لجلب الأعمال والتي تعطيه مظهرا مهيبا. لم يُر هناك سوى مائدة يضع عليها تليفونا من طراز عتيق. ومقعدين كبيرين من الخوص، وفي ركن، على الحائط توجد بعض الخزائن الخشبية المغطاة بالأتربة.

عندما ظهر كريم، في الظهيرة، في مكتب خالد عمر. كان هذا يتكلم في الهاتف. حيا زائره بيده الاخرى، وافهمه بحركة إيمائية أن محادثته تكاد أن تنتهي. جلس كريم فوق أحد المقاعد المصنوعة من الخوص وقد أعجب بالطريقة التي يتبعها خالد عمر في أعماله فقد غاص في مقعده الدوار، كان التاجر يستمع الى محدثه الذي لا يراه فيؤكد المحادثة. ويهز رأسه أو ينطق بكلمة جافة، وأحياناً يطلق تنهيدة كأنه يود أن يجعل الآخر يحس أنه قد ضحى بوقت ثمين من أجله، لم تكن هناك أي أوراق، ولا قلم فوق المائدة. فكل شيء مسجل في الدماغ.

وضع خالد عمر السماعة. وغاص في مقعده وانفجر في ضحكة حادة بدت كأنها قادمة من امعائه، إنها ضحكة حيوان مبتهج، ضحكة بلا سبب، وتلقائية تماما: كيف حالك ياصديقي ؟ هل تعرف ماذا طلب مني هذا الشخص في التليفون؟

قال كريم . لا.

– حسن، طلب أن أحضر له نمرا .

– نمر ؟ بالتأكيد أنه يريد أن يطلقه على حماته. إنها نكتة ظريفة.

– أبدا، فالأمر بالغ الجدية.

– لم تخبرني أن لديك نمرا للبيع.

– ولم لا . سوف أجد له واحدا.

وأمسك بيده - ذات الأصابع المرصعة بالخواتم - مبسم النرجيلة الضخمة المصنوعة من العنبر والموضوعة قريبا منه فوق الأرض ودسه في شفتيه. ثم شد نفسا وأطلق من خياشيمه سحبا من الدخان الكثيف، وعلق :

– أنت تعرف، ياصديقي الشاب، أنه قد جاء عليَّ وقت كنت أبحث فيه عن كسرة خبز فلا أجدها. كنت أحس أن الخبز غير موجود إلا في مخيلتي، وأن الخبازين كائنات اسطورية. وهأنا الآن أعرف اين أجد نمرا، أعرف أين يجب أن اتكلم في التليفون كي يحضروا لي نمرا طليقا أو في قفص. أليست هذه معجزة ؟

ومرة أخرى، انطلق ضاحكا. هتف كريم :

– أمر غريب ؟

قال عمر. انه أمر بسيط، انه يتعلق بالدخول في نفس الدائرة. كل مايرغبه الانسان هو أن يمتلك كميات خيالية مخزنة في مكان ما، ومحفوظة جيدا. هل رأيت أبدا أطنان الارز ؟ أنا لا. ومع ذلك بعت آلاف الاطنان. هذا هو غموض التجارة. لانرى شيئا. كل شيء يدور في الكواليس، أحس أنني أبيع الريح. وهذا شيء يبعث على التسلية.

– أنت رجل مادي، يا أخ خالد ! أريد أن أقبلك ! عندما أفكر أنني لن أستطيع التعرف عليك !.

نظر خالد عمر الى زائره بفرحة ظاهرة. فالصداقة التي جمعته بهذا الشاب تعود الي اقامته في السجن، لم يكن كريم قد تعدى العشرين في تلك الآونة. فقد تم القبض عليه بصفته عضواً سياسياً خطيراً. وانحشر مع الخارجين

على القانون العام. وقد كان اتصالهما الأول بالغ الصعوبة، فعندما علم تاجر المستقبل من كريم أنه موجود في السجن لاسباب سياسية، لم يستطع أن يمنع نفسه من معاملته كغبي مسكين. وأن يفهم كيف يمكن أن يفقد المرء حريته لدافع برىء أو لسبب سياسي. فحسب رؤيته فهذا غباء جميل، ومن ناحية أخرى، فلم يكن عليه سوى أن يقدم على سجنه. الذى خاطر من أجله بحريته بالتأكيد، ولكن هذا أمر غير ملموس قياسا الى حافظة مملوءة بالأوراق المالية. أيضا فإن شخصا من طراز كريم يبدو له مضحكا، فهؤلاء المساجين السياسيون ، يتصرفون كشهداء ويثيرون اشمئزازه، إنتابته احيانا مشاعر اخوية تجاه هذا الشاب المثالي. لذا ساعده طوال فترة اعتقاله.

– هل يمكن أن أقدم لك شيئا ؟ قهوة ؟

قال كريم :أجل سوف أتناول قهوة.

قام خالد عمر واستدار حول المكتب وذهب ليفتح النافذة،. دخلت الضوضاء فجأة من الحارة حيث يوجد سوق الفاكهة والخضار غزت الغرفة صيحات الباعة الذين يمتدحون بضاعتهم، وهزتها كأنها زلزال، سيطر على صوته الأجش، صاح خالد موجها كلامه الى صاحب المقهى المقامة على الناحية الاخرى من الحارة :

– اثنان قهوة يا عاشور !

رد صدى الصوت في المقهى : اثنان قهوة !

اغلق خالد عمر النافذة بسرعة، وعاد ليجلس خلف مكتبه. وقد بدا منتشيا داخليا، كأنه قد تذكر لتوه قصة غريبة .

– أهنئك على شحاذك المزيف. فقد كان انتفاضة حقيقية هذا الصباح عندما اكتشفته الشرطة.

– أخبرني : هل يتكلمون عنه في المدينة ؟

– بدأت الفضيحة أولا بأن شرطيا قد كسر رقبة شحاذ عجوز، واغتنم الناس. الفرصة لكن الأمر سرعان ما انتهى حين فهم الناس الملهاة بدت الشرطة

مرتبكة، وطلبت من الصحف التزام الصمت ازاء هذا الحادث. تصورت أن بعض الشحاذين الراغبين في الاحتجاج على أوامر المحافظ قد دبروا هذا.

— ليتخيلوا ما يشاءون. فلم ننته من الضحك بعد. اسمع، لقد جئت كى أخبرك انتى دبرت لك موعدا مع هيكل. سيكون هذا المساء، حوالى الثامنة فى شرفة مقهى «لوجلوب» ، كلفنى أن أخبرك أنه سعيد بمعرفتك.

قال خالد عمر بصوت خائر ومرتعد قليلا : أنت تعرف أننى تمنيت هذا اللقاء منذ أمد طويل، فكل ماحدثتنى به عنه الهمنى مشاعر فياضة. أنا أحبه كأخ. وعليه أن يعرف أنه يمكنه أن يعتمد علىّ فى كل مايريد أن يفعله فثروتى الطائلة تحت أمره .

— لقد أخبرته بهذا. وهو يكن لك مشاعر أخوية، انه يعرفك أفضل مما أعرفك أنا. لقد كلمني عنك دوما كرجل يملك قلبا كبيرا. كل هذا دون أن يراك. أنا متأكد أنه لن يخيب أمله.

— ماهى تصوراته ؟ ألم يقل لك شيئا ؟

صرح كريم : لا ، اعتقد أنه يريد أن يكلمك عنها أولا ، فهو فى حاجة لمساعداتك، هذا المساء. بلا شك سوف يضعك فى إطار خططه.

— هل ستستمر دوما فى إرسال خطابات القراء الى الصحف، انها فكرة شيطانية، وأنا مشدوه بها.

كان تملق الصحف فيما يتعلق بالمحافظ قد تجاوز كل مايحدث حتى الآن فى إطار الحقارة والخسة. فبصوت الصحافة تغنى المدينة بأكملها فى مدح الجوع. ولا يسمُع أحد يتكلم فى أى مكان عن مبادراتها أو عن رغبتها فى هزيمة الجوع. حتى مميزات الجنرال السابق قد صيغت بشكل واضح ، وكأن المدينة ميدان معركة حقق فيه المحافظ نصرا حربيا بينا. هذا الموقف الذى نجح هيكل فى تفجيره. كانت الحيلة تتضمن متابعة الحركة ثم تجاوز غبائها لدى حاملى المباخر. بأن يرسل إناس من معارفه خطابات الى الصحف، مليئة بالتملق حول الأنشطة

الحكومية التي لا يتردد أحد إلا في نشرها . وقد آمنوا بأن كل هذا من أجل مجد اسيادهم.

قال كريم .

– ليس الآن . سوف نبدأ من أعلى مكان لمنع الصحف من نشر هذه الرسائل. فآخر حكايات قمنا بإرسالها كانت بلا صدى. يبدو أننا تجاوزنا الحد، هل تذكر ما كتبته بنفسي، وأنا أقارن بين المحافظ والاسكندر الاكبر.

– أذكر ذلك جيدا . فقد قرأته عليّ. لقد كان خطابا شهيرا !

– حسنا، هذا الخطاب لايزال يعمل به في بعض الاوساط كوثيقة فريدة. فالصحيفة التي نشرته زاد توزيعها في هذا اليوم بضع مئات من النسخ، صدقني، لقد اعتبرت أفضل نموذج لخدم السلطة. وعلى خدم الحكومة أن يتعلموا منه.

قال خالد عمر : ولذا، فكم أنا أسف لأنني لا أعرف القراءة. سوف أكون سعيدا في كل لحظة.

طُرق على الباب. ودخل الغرفة صبي على أطراف قدميه، يبدو قذرا وأشعث، ويحمل صينية عليها فنجانان من القهوة.

– القهوة ياعمر بيه.

قال التاجر : ضعها هنا .

وضع الصبي الصينية. ثم ألقى نظرة خبيثة على الرجلين. وما لبث أن هرول وهو يعرج خفيفا . قال كريم وهو يمسك فنجانه : لقد حدثت لي حكاية بشعة.

– ماذا ؟ لقد اقلقتني ؟

– آه. لم تكن سوى حكاية سخيفة.

كان عليه أن يطلق ضحكة مدوية.

حكى لخالد عمر عن زيارة الشرطي المصاب بالربو ومزاعمه أن الكورنيش طريق حيوي.

كانت تلك فرصة لخالد عمر أن يسمع ضحكته المجلجلة. قال عندما هدأ :

– المساكين. إنهم مدهشون، قل لي يا رجل، هل ألفت هذه الحكاية ؟

– لا . بشرفي، وهل أنا بقادر على تأليف شيء كهذا. عليّ أن أخبرك أن الأمر تطلب مني جهدا شديدا حتى لا أنفجر في الضحك عندما نطق بهذه الكلمات، في الحقيقة كان رجلا طيبا، انه نوع من رجال الشرطة الطيبين، وكي ينجح في هذه المهنة عليه أن يعيش لسنوات على الكفاف. فهو عجوز ولماح. ثم انني حاولت أن أرشوه.

– بأي وسيلة ؟

– سألته أن كان لديه ابناء، وعندما رد بالايجاب. قدمت له طائرة ورقية من أجلهم. لم يوافق سوى على طائرة صغيرة. اختارها بنفسه. ثم ذهب وهو يقول لي إنني سأكون مدينا لك طول العمر.

هتف عمر . بارك الله اليوم الذي عرفتك فيه. ماذا يمكن أن أفعل كي أخرجك من هذه العثرة ؟

– حسنا، أعتقد أنك إذا استطعت أن تجعله يحصل على بضع أقات من السكر. فسيكتب محضراً لصالحي.

– سأغرقه بالسكر. إذا كان هذا يسعدك. هل من شيء آخر ؟

– لا شيء، شكرا.

– بل أنا الذي أشكرك.. لقد غمرت قلبي بالفرح لأنك ستعرفني على زميلك هيكل سأكون مدينا لك ما حييت .

ورغم أن خالد عمر لم يبرهن قط على ما يحمله من مودة. فإن تعجله في التعرف على هيكل جعله يبدو وكأنه شاعر عاشق متيم سيقابل ملهمته. أحس بنوع من البهجة الداخلية العميقة، أكثر من أي احساس بالشهوة. إنه رجل يتخيل نفسه يحارب التعنت والعنف من خلال مدحه للجلاد، عليه الآن أن يفعل شيئا غريبا ! فقد حلم خالد عمر بمثل هذا الرجل من أمد طويل.

(٤)

تلفع بروب دى شامبر قرمزى، ترك هيكل اريكته، للمرة العاشرة عليالأقل، واقترب من النافذة، ورغم أنه فى قمة العصبية، فإنه احتفظ بمظهر هادىء وبارد الاعصاب. تحرك بكل خيلاء كأنه قد تربى فى القصور الملكية. كشفت النظرة الباردة، التى خلت من المشاعر عن تصميمه أن يترك نفسه للقدر، فمنذ لحظة، فقد الأمل فى أن يظهر خادمه «سرى»، هذا الذى يمكنه أن يعود غدا أو خلال أسبوع، لا أحد يعرف متى، حتى هيكل نفسه. لقد أرسله بعد الظهيرة، كى يذهب ببدلته الوحيدة الى كواء الحى. ولم يعد حتى الآن، فى السادسة مساء، أغرق هيكل غياب خادمه فى ألم مرعب، فقد راح يتحرك فى شقته وكأنه يتأهب للخروج. لقد بليت كل ملابسه الأخرى، وبعيدا عن الجدال، فهيكل حريص أن يرتدى ملابسه الانيقة، وتلك ضرورة جمالية تبدو عملا طفوليا، وذلك من أجل بعض الاعمال الوظيفية. لأن الشاب كريم حاول أن يدبر مع السيد الكبير لقاء ذا مغزى ، فهيكل نفسه ليس صاحب ثروة ولا جاه اجتماعى، ولكن الطريقة العجيبة التى يرتدى بها ملابسه والتى يمشى ويتكلم بها ليست سوى نتاجا لاجتهاد خاص يلازمه منذ ولادته وتبعا لطبيعته الراقية.

ابتعد عن النافذة دون أن يكتسى وجهه بأى مرارة. الرأس عالية، وكأنه يتحدى مصيره. فـ «سرى» لن يعود مبكرا. لقد انطلق الى المجهول ومعه بدلة هيكل. هذه البدلة الابهة القديمة التى اشتراها منذ بضع سنوات. راح هيكل فى هذه اللحظة، يتخيل نفسه عرضة لمغامرات ملفتة للنظر.فإسلوب السخرية الذى

يتخذه لنفسه، والاهتمام الزائد الذى يحمى به نفسه ضد أقل ذرة تراب، يشكلان جزءا مهماً من فراغه.

انها بدلة كاملة، مصنوعة من قماش مستورد، ذات ألوان داكنة وقورة، فصلها أمهر الخياطين فى المدينة بحرفية بادية، لذا فهيكل يرتديها دائما مما جعلته يحتفظ دائما بشكله الانيق ، آخذا في الاعتبار مابلغته من تقدم السن. فعندما اشتراها كانت تساوى مبلغا خياليا. انها تساوى ثمنها ، وهو يضفى عليها تميزا بالاضافة الى وقاره الطبيعى، فهذه البدلة التى تخطف الابصار تعطى لهيكل ملامح الشخص الموسر الأهل للثقة ، انه يرتاد اوساط المدينة الاكثر رقيا بصفته شاباً ينتمى الى الطبقة الموسرة. انه بلاشك ثرى، لم يفتقد قط معظم مصادره من خلال ايراد ضعيف يأتيه من قطعة ارض ورثها، يكفيه كى يعيش بشكل متواضع. لا أحد يعرف مساحة هذه الأرض، لكن اساليبه تؤكد بشكل عام أنه رجل ثرى يملك العقارات. فى الثانية والثلاثين من العمر، لم يعمل ابدا. سعيد بارضه الصغيرة كثيرا. انها أفضل من العمل مع هذه الحثالة من اللصوص القتلة الذين ينتشرون فى الأرض، ومع هذا فإن هيكل لم يكن عاطلا، فقد انشغل طيلة وقته بممارسة الجانب الساخر من الانشطة الانسانية، فالعالم الهزلى يعجبه، بمعنى أنه بالغ الحساسية لكشف أقل بادرة من العقل، فيما يراه أو يسمعه حوله. وأحيانا عندما يقرأ خبرا فى جريدة قريبا من أفكاره، لقد أصبح مريضا بالغيظ، كلما رأى الجنون الغبى الدائم لبشر يمارسون فرحتهم. كان أشبه بطفل فى سيرك لايكف عن رؤية الاشياء ممتعة بشكل عام.

نظر الى المنبه الموضوع فوق الكومدينو. الساعة الآن السابعة. إنها حدود الوقت الذى اتفق عليه مع خادمه، عليه أن يخبره بالمصائب التى حلت، ولكن فى إطار الصداقة، فإن غضب هيكل لم يتضح ابدا. استمر فى التصرف بهدوء تام، ولم تبرح الابتسامة شفتيه، بدت عليه علامات خفيفة من الخشونة. اشعل سيجارته، ثم تمدد على الأريكة، وقام للحظة كى يتجه الى النافذة. لاشىء. لقد اعتاد مثل هذا الروتين. تخيل «سرى» مدهوسا تحت عجلات ترام، وأحس بنوع من السعادة أمام هذا الخاطر، فتأخير عودة خادمه سوف تمنعه من الخروج. سوف يخلف موعده مع خالد عمر. هذا الرجل الذى بدت علاقته به جدية، ويجب أن تزداد

قوة، انه لمن المؤسف أن يخلف أول ميعاد مع التاجر، فمنذ أن حدثه كريم عنه، وهو يتكلم عن الظروف الاستثنائية التي تقوم عليها صداقتهما. لذا يرغب هيكل أن يتعرف عليه. لكنه يكاد أن يتأخر عن هذا اللقاء، ربما عليه أن يتأكد من بعض المعلومات المؤثرة في علم النفس الشخصي، فهو يرى أنه يمكنه أن يطلب مساعدته يوما بصفته شريكاً له قيمته في ممارسة سخريته الخاصة، فحسب ثقة كريم فقد كان يعرف أن التاجر ماهر لكافة أشكال المؤامرات ذات المغزى السياسي. كما كان يكره السياسيين ويعتبرهم أكثر سفالة من الكلاب ، ليست الكلاب الحية. ولكن الكلاب الميتة العفنة. فالمؤامرة التي حدثه عنها لا يمكن أن تغريه فقد حدثه أنه ليس في نيته أن يستولي على السلطة، ولا أن يلقي قنبلة على رأس المحافظ.

كان المحافظ هو أحد الوجوه المخادعة المعروفة. ربما الوجه الأكثر اثارة للضحك. تعرف هيكل على ذلك من شكله. فهو يراه يوما في صالة الالعاب بكازينو البلدية محاطا بأقرب أعوانه. هؤلاء الذين يشكلون مجلسا من التابعين يحومون حوله كالخدم، يبتسمون بمهانة وبلاهة. يهتفون بكل حماس. كان هيكل مغرما بغباء هذا الرجل الكبير، الذي بلغ درجة هائلة من تصديق نفسه. كما أمكنه أن يبلغ مكانة من الغباء المأساوي، الذي يدفعه الى الاحترام. يرى فيه كل غباء البشرية. كان هيكل يخاف أحيانا من المشاعر السادية الكامنة في هذا الرجل،

بدا له أنه قد عين محافظا لارضاء شخصه، ومبادراته، وخطبه الجماهيرية، لم يفكر سوى في التملق وأن يقدم له ما يشحذ حسه الانساني. كأنه يشك أن شخصا في المدينة يمكن أن تصدر منه بعض الحماقات كي يحس بالمتعة. لم يفتقد روحه كمهرج. كيف لم يستطع هيكل أن يحب رجلا مثل هذا ؟ لا شك أن موته يعتبر إهانة. هذا مالم يفهمه الثوار الاغبياء الذين يناضلونه بشكل علني. فهم يعطونه الفرصة كي يأخذ الأمر بشكل جدي. وبالنسبة لهيكل، فإن جريمة الأقوياء تعتبر شهادة. وهو ليس على عجالة أن يعلنها بأعلى صوته في الشارع. بل حتى يمكن لطفل أن يلاحظها وحده.

توجه مرة أخرى نحو النافذة، استوقفته حركة قادمة من الممر. فجأة زالت غضبته ضد خادمه مرة واحدة، أحس كأنه قد تخلص من الغضب. وبعد ثوانٍ ، ظهر «سري» حاملا بدلته الشهيرة على كتفه معلقة في الشماعة:

- هل هكذا أستطيع الاعتماد عليك ؟

بدا «سري» أمام مخدومه بوجه متعب ذي تعبيرات، منهكة. ورغم أنه لم تبد عليه الدهشة فإنه بدا مسطولا تماما، وفي حالة انعدام وزن، العينان نصف مغمضتين. بدا نائما وغير واعيا لنفسه. وكأنه قد قطع حبله السري مع الناس منذ لحظة ميلاده. مما أتاح له الهدوء والتفكير، ودون أن يفتح عينيه، قال بصوت هادئ:

- يا أمير .. انها ليست غلطتي، بل الظروف ..

- أي ظروف ملعونة ! أنا على موعد مهم، وبسببك سوف ألغيه.

قال «سري» وهو يفتح عينيه الشاخبتين : آسف يا أمير. ولكن الظروف ..

قال هيكل : اسكت والا خنقتك. هيا. ضع البدلة على الأريكة

لم يرد «سري» ولكنه هز رأسه بضعف، مؤكدا أنه لايستحق مثل هذا الاستقبال، وبحركات بطيئة، وكأنه ينام ببطء، وضع حمله الثقيل فوق الأريكة ثم تمدد في ركن من الغرفة وانتظر بكل قلق أن يوجه له سيده الكلام. لكن «هيكل» لم يعره انتباها، وقف أمام مرآة الدولاب، وبدأ في إرتداء ملابسه، سعيدا أن يبدو على هذا المنوال. انه هكذا دائما، فمن المستحيل أن يصيبه كل هذا من خادمه، فخلف شكله الخارجي الرائع يمتلك «سري» مواهب لا نقاش فيها. لذا فهيكل يعتمد عليه في المسائل المادية. يمكنه أن يبقى أسابيع عديدة دون أن يعطيه نقودا، ويستمر «سري» في التمسك بوظيفته وكأن النقود لا وجود لها. فهناك ما يأكله في وقت الراحة. إذن لماذا يتخلص منه. ظل هذا أمرا غامضا. شك هيكل في أنه يسرق المأكولات وبعض السلع من عند تجار الحي، ينتظر من يوم لآخر أن يراه وقد انتهى به الامر في السجن. ومن وقت لآخر. يبدو «سري» اشبه بلغز، فهو لايتكلم عن النقود كشيء ضروري، أو أنها يمكن أن تنفعه، أعلن هذا وكأنه اكتشف فلسفة عدمية، ولكن ما أهمية هذا التلميح الغامض لأزماته المالية، فكل هذا هباء .لقد فهم هيكل أن خادمه على حافة الافلاس. فاقترح عليه القليل من المال. رفضها «سري» زاعما أن الأمر غير ضروري، وأنه ليس على وشك الدمار. ألح هيكل، وكأنه سوف يغضب. وأخيرا وافق «سري» على المبلغ على مضض.

وعندما رأى مخدومه يدير له ظهره، استكمل ارتداء ملابسه دون أن يلبي مطالبه، لم يكف «سري» عن هز رأسه. ولكنه شرع في الهمهمة من بين أسنانه. بدا كأنه يرد على اتهامات مدبرة ضده من أشخاص وهميين وأنه يضعه في دائرة الشك! تركه هيكل يزفر شكوته، ثم قال بنفاد صبر:

— ماذا هناك أيضا ؟

— هذا ليس عدلا، يا أمير !

— ماهو الذى ليس عدلا ؟ ألا يكفيك أن تأتى متأخرا على موعدى ؟ هل يجب أن استمع الى نحيبك ؟

— نعم، يا أمير، ليس عدلا. لا أستطيع أن أحتمل أن تغضب منى. لقد تأخرت فعلا، ولكنها ليست غلطتى. يجب أن أنقذ شرف بيتنا !

— شرف بيتنا ؟ ماذا تقول ؟ ألا تتركنى فى حالى. رح ونم فى المطبخ.

— لا أرغب فى النوم. يجب أن أحكى لك القصة برمتها.

استدار هيكل وهو يزرر قميصه ليرقب خادمه، إنه يعرف نوع القصص التى يحكيها «سرى»، كانت فى أغلب الاوقات حكايات غامضة، وطويلة الدرب، وصعبة التصديق، أما إذا كان لديه الصبر ليسمعها فإن هذا من قبيل المكافأة، لانها دائما تتعلق بموقف طريف، يسمعها هيكل بكل متعة، ولكنه الآن على عجالة للذهاب لمقابلة خالد عمر. وسوف يرفض اغراءه قال :

— لا أريد أن أسمع شيئا.

— استحلفك بالله أن تسمعنى.. لم استطع أن أفعل غير ذلك، أتود أن نفقد ماء وجهنا أمام الاجانب ؟

— لا أفهم شيئا مما تقول، لماذا نفقد ماء الوجه ؟

بدا «سرى» وكأنه آثار فضول سيده، وقد أتخذ هيئة قصاص شعبى. بمعنى أنه مال فوق الارض، وراح يجلى صوته، ثم تأهب لحكايته ، وألقى نظرته حيث يبدو ضجره الغامض. وبدأ:

– حسنا يا أمير، فأنت تعرف، أن دكان «صافي» الكواء مكان مفضل العديد من نبلاء الحي، يجلسون هناك طيلة النهار يتفلسفون ويدخنون ويشربون الشاي الاخضر. يجب أن أقول لك أنهم يعاملونني باحترام فائق. إنهم ناس معروفون ويعلمون أنني أخدم في منزلك.

سكت «سري» وأغلق عينيه تماما. وكأنه افتقد انفاسه، سأل هيكل :

– هه .. وبعد ؟

رد «سري» : يا أمير. هذه العصرية، أدركت أن الموقف خطير.

– أي موقف يا ابن الكلب !

– افهمني يا أمير ! لايمكن أن أتركهم يعرفون أنه ليست لدينا سوى بدلة واحدة، ففي كل مرة يرونها هي نفسها. فبدأوا ينظرون الي بإبتئاس وهم يهزون رءوسهم بمظهر المرتاب، عندما اتكلم عن الرخاء الذي نعيشه في منزلنا، باختصار، لقد زاد الكلام علينا ، لذا، رحت أبتدع حكاية كي أنفي هذا الموقف.

قال هيكل بغضب بارد . أكمل، الآن أنا متأكد أنك مسطول.

– ليحفظني الله ! لاتغضب يا أمير! لقد أردت أن أكذب كل المزاعم حول موضوع ثروتنا، وأن احكى لهم أنك تولي عناية لهذه البدلة، رغم الدولاب المليء بالملابس من كل الانواع لانها تذكرك بمغامرة عاطفية تركت قلبك ميتا. لقد جعلتهم يعتقدون أن ارتداء هذه البدلة قد تم في لقائك الأول مع إمرأة جميلة عشت معها أكبر قصة حب في حياتك .. ولكن .. هه ..! لقد ماتت المرأة .. فأصيبت – سعادتك – بالإعياء، وظللت تحس بنوع من المشاعر لهذه البدلة وأنت تتذكرها. هذا كل شيء، يا أمير! سوف تقول أنه أمر غير مهم.

– وهل كانت يلزمك كل هذا الوقت لقص هذه الغباءات ؟

– لم يودوا أن يتركوني أذهب يا أمير، أرادوا أن يعرفوا تفاصيل المغامرة، مثلا : ما اسم المرأة، وكيف ماتت، وإذا كنت قد تزوجت. وكان عليّ أن أرد على أسئلتهم، وفي النهاية. ذهبت بعد أن وعدتهم أن أحكي لهم تفاصيل أخرى في المرة القادمة.

بدا كأنه نائم أكثر من ذى قبل. قام «سرى» وأمسك فرشة الملابس، وراح يقف قريبا من هيكل. وقد اعتقد أن الأمر قد انتهى. وانتظر أن يهنئه سيده.ثم سأل:

– هه .. ألست غاضبا يا أمير ؟

قال هيكل : حسنا. سوف اسامحك. رغم هذه القصة الغبية التى لم أسمعها. الآن، لقد أهملت شئون البيت. وجعلتنى أتأخر عن موعد مهم.

أجاب «سرى» وهو لايفتح عينيه، وقد بدت عليه تباشير عنف : كيف أستطيع أن أهمل شئون البيت . لن أترك أحدا قط يشتمك يا أمير.

قال هيكل وقد أدرك أن من الخطر أن يطول النقاش، فالشرف هو الموضوع المفضل لخادمه :

– أعطنى منديلا.

توجه «سرى» الى الكومدينو وهو يعرج من أجل أن يحضر منديلا ابيض نظيفا، مد يده الى سيده. الذى أمسكه وفحصه بدقة كى يتأكد أنه خالٍ من أى أثر للتراب، ثم دسه فى جيب سترته الداخلى. الآن. هو فى قمة اناقته، نظر للمرة الأخيرة فى المرآة، ووجد أن كل شىء بلغ درجة تجعله مؤهلا للخروج.

هذا الخروج الذى باغته قليلا لم يكن على مزاج «سرى»، فقد اراد أن يناقش طويلا مع سيده، وأن يبوح له ببعض الافكار العميقة النابعة من مخه «النعسان» ، لكنه أحس أنه لايمكن أن ينال الرضاء لان هيكل قاطعه. ثم رمش بعينيه. وتساءل بصوت صافى :

– ماهى أوامرك ياسيدى ؟

رد هيكل : لست فى حاجة لشىء. سأتعشى فى الخارج. يمكنك أن تنام.

واختفى فى الممر، تاركا «سرى» فى غاية الدهشة.

(٥)

كسى مُشعل المصابيح بحركته الماهرة ضوء الغروب بجو من الخيال الساحر، راح يمارس عمله الليلى وهو ينتقل من مصباح لآخر. وكأنه بهلوان. تتبعه هيكل بعينيه لحظة. قبل أن يغوص فى الشارع. ما إن سار بضع خطوات حتى سمع همسا من رجل يبدو كأنه يختبيء خلف جذع شجرة. بوغت به. تقدم هيكل نحو الرجل المجهول وتفحص وجهه للحظة قبل أن يتعرف عليه. كان الرجل معرفة قديمة. إنه شحاذه الشخصى منذ سنوات. ينتظره كل يوم أمام بابه. لم يره هيكل منذ أن طاردت شرطة المحافظ زملاءه عبر المدينة.

راحت أعضاء الرجل ترتجف، وبدت عيناه « المعمتان » زائغتين أما أسماله فأكثر قذارة من العادة. همس بصوت خفيض :

– يساعد الله المؤمنين !

قال هيكل : نعم. إنه عصر حزين. أين كنت منذ فترة ؟

رد الرجل هامسا : كنت مختبئا. ماذا تريد أن أفعل ؟ انهم يلقون بكل من يمسكونه فى السجن. هذا المحافظ من النوع العنيد.

– أعرف ، لكنه لن يستمر طويلا. سوف تنتهى الأمور الى الأفضل.

– يسمع منك ربنا. أنا عطشان لكلمة أمل.

التفت حوله. وبدا كأنه يخشى أن يظهر أى شرطى فى أى لحظة.

أكمل:

– سوف تُخرب هذه المدينة، وسيضطر المساكين للاختباء.. ترى كيف سنعيش ؟

علق هيكل . لاتتشاءم . هيا أخرج من هنا، رافقني حتى آخر الطريق، سنتحدث ونحن نمشي.

بدا الرجل مليئا بالفزع. قال :

– لا أستطيع . إنهم في كل مكان، إنهم يطاردونني .

قال هيكل وهو يمسكه من ذراعه : لا تخش شيئا، أنت معي، لن يستطيع أحد أن يقترب منك وأنت تتمشى مع صديق.

هتف الشحاذ : صديق . من أجل هذه الكلمة فلا يمكن أن تورد على نار.

تابع هيكل، مترددا في البداية، ثم مشى إلى جواره. بدا خوفه وكأنه قد زال، ظل محتفظا بإيقاع خطاه. ابتسم هيكل، فهو سعيد من هذا اللقاء وراح يبحث عن وسيلة لمساعدة هذا الشحاذ، قال :

– سوف أقدم لك اقتراحي، لست في حاجة أن تنتظرني في الشارع، تعال لتزورني كل يوم في منزلي، فليس هناك أي خطر.

نظر هيكل الى الشحاذ ورآه قد أصبح أكثر حزنا، فالإقتراح لم يرضه قط. سأله :

– ماذا يضايقك ؟

سكت الرجل، وقد بدا مكفهرا، وكأن هيكل قد أهانه بشدة.

انتهى بأن قال :

– لست موظفا، وماذا ستفعل صداقتنا ؟ ألايوجد سوى النقود في الدنيا يروقني أن اتحدث معك وهذا هو ما أندم عليه.

قال هيكل : فهمت .. وأنا أيضا افتقد هذا. إذن، إفعل ما قلته لك. خذ هذه.

أخرج قطعة نقود من جيبه ودسها في يد الشحاذ.

قال الرجل · ربنا يزيدك بركة .. فرؤية وجهك تجلب لي الخير .. وتولد الأمل في قلبي .

الآن ، حل الليل، وصلا عند أطراف ميدان يغمره الضوء تماما، وتحفه المحلات، والمقاهي المليئة بضجيج الزبائن، دليل سيادة هذه الحضارة البوليسية التي تتحدى هذا الشحاذ. توقف غاضباً ، وكأنه أمام غابة غزتها الحيوانات المتوحشة المتأهبة للانقضاض عليه، فقرر الا يذهب بعيدا . قال هيكل :

– حسنا، اتفقنا . هل ستأتي لرؤيتي ؟

وعده الرجل : سوف أجيء لأراك مرة، عليّ أن أجرب الموت ! حفظك الله.

نصحه هيكل بالحذر .. ثم تركه وعبر الميدان.

يقع مقهى الـ «جلوب» الشهير على مسافة قريبة من الكورنيش في أحد الشوارع الأكثر فخامة بالحي الافرنجي. توجه إلى مكانه الذي يمر أمامه دائما بلا توقف، أكبر عرض من الحسناوات حيث يقضي أغلب الزبائن - يمكن أن نقول جميعهم - أوقاتهم في استكشاف هضاب النساء اللائي يمررن فوق الرصيف بإيقاع يثير الدهشة. فالأثواب الرقيقة التي ترتدينها هذه المخلوقات عامة جذابة، تجعل مهمته سهلة، بعض الزبائن، – وليس أغلبهم – من الشبان، يجلسون طيلة النهار، يراقبون عن قرب اتساق ساق جميلة، أو تموجات فائرة لردف ما . حقا، فإن مايحصل عليه الفتيان من هذه التأملات العاطفية لفتنتهن ليست كافية، يحكي أن من بينهن، توجد بعض الداعرات اللائي يخرجن عمدا بلا «لباس» من أجل إثارة المتعة الخبيثة لدى البصاصين «الغلابة» . ولهذا فإن شرفة مقهى «الجلوب» لا تخلو ابدا . حتى في ساعات القيظ بعد الظهيرة، لأن هؤلاء الأنسات، حسب العادة، يستعرضن أجسادهن في ساعة القيلولة. أما داخل المقهى فيبدو خاليا تماما . يرى أحيانا رجلان أو ثلاثة من العجائز على أهبة الرحيل من هناك، منشغلين – بلا هدف – في مباراة دومينو تكون نتيجتها مخاطرة ميئوس منها، من وقت لآخر يلتفتون رغما عنهم الى صيحات الإعجاب لزبائن الشرفة، فيلقون عبر الفتحة الزجاجية نظرة الى الشيء موضع الدهشة، ثم تخيب مشاعرهم، ويلقون بأنفسهم في لعبتهم الشيخوخية.

جلس هيكل عند طرف الشرفة، كعادته، ثم راح يفتش بين الموائد، يتذكر

المداعبات القدرية حول بدلته الرائعة المكواة لتوها، نظر أمامه وبدا غير مستعد لان ينتبه للعابرين في الممر، تساءل إذا كان خالد عمر قد وصل، وهل سيتعرف عليه. هذا دليل مؤكد يجعل التاجر هدفا بأن يسبر فيه صديقه الحميم الجديد. انه نوع من الاختبار. عليه الآن أن يتعرف على هذا الرجل الشديد الذكاء، بدا له أنه من المستحيل على خالد عمر – إذا كان صحيحا هو الشخص الذي يتصوره – أن يكون قد تجاهل وجوده.

وقف شخص أمامه كأنه يسد الطريق، أخفض هيكل نظرته، ورأى هيكل «عمر» الذي مد له يده الضخمة المرصعة بالخواتم:

– لقد شملتني بشرفك !

أجاب هيكل: بل كل الشرف ليّ.

امسك يد الرجل، وراح يضغط عليها بيديه، أجاب خالد عمر :

– تفضل ، اجلس.

جلس هيكل، وظل خالد عمر للحظة واقفا. ثم جلس بدوره. لم يكف عن النظر اليه، وبدا هيكل زائغ العينين. أعطاه الإنطباع أن شخصا ما كان سببا لنبرته المبتهجة. قال هيكل:

– معذرة إن جعلتك تنظر، هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

بدا خالد عمر كأنه يخرج من حلم :

– عشر دقائق تقريبا. ولكن هذا لايهم، أنا بالغ السعادة لرؤيتك. لقد عرفتك على الفور.

اقترب النادل منهما، زجاجة ويسكي وطبق صغير مليء بالمشهيات، سأل الصبي وهو يوجه كلامه الى هيكل:

– ما طلبات سعادة البيه؟

طلب هيكل ويسكي فذهب النادل، أمسك خالد عمر طبق المشهيات وقدمه للشاب:

– تفضل ونحن ننتظر.

قال هيكل: لا، شكرا، ليس الآن.

قال خالد عمر: اعذرني لأنني آكل أمامك، فأنا أحب المشهيات ... كل أنواع المشهيات.

التقط من المشهيات ... ودسها في فمه ثم ألقى النفايات بأصابعه.

أكل خالد عمرمن المشهيات وهز رأسه وهو يتفحص هيكل مشدوها:

– لقد عرفتك على الفور.

رد هيكل: أريد أن أخبرك أن هذا يسعدني.

– كنت واثقا انني سأعرفك. أليس كذلك؟

– ماذا تعتقد ؟

قال خالد عمر : حسنا، من الغريب أنك أردت مقابلتي بهذه الطريقة. لا أفهم لماذا تبحث عن المصاعب. كان يمكن لصديقنا كريم أن يقدمنا لبعضنا. على كل لم يخدعني وهو يصفك. هذا لايعني أنه وصفك شكلا، وملبسا، لا، بل كلمني عن أفكارك. ويكفي هذا لأن اتعرف عليك.

تساءل هيكل : هل تبدو افكاري على وجهي؟

– لا أعرف كيف أشرح لك. لقد رأيتك لتوك تعبر الشرفة. وتساءلت: هل هو؟ لقد بدا عليك أنني اعرفك أكثر من الاخرين.

قال . اعرف شيئين بالغي البساطة. أما الباقي فلا أهمية لهم .

– انهما ربما الشيئان اللذان اعرفهما .

– بلا شك، ولهذا أنا هنا. يمكننا أن نتكلم بصراحة.

– أذن قل لي أول الشيئين. وأنا أسمعك.

وكأن ما سوف يسمعه يستحق زيا رسميا، لذا أسرع خالد عمر بضبط رابطة عنقه وناعم شاربه المصبوغ. لم يكن في تصرفه أى دليل مزاح، وأيضا أى نوع من القلق:

– الأول هو أن العالم الذى نعيش فيه تحكمه عصبة نبيلة من الأنذال التى لطخت الارض.

– أنا متفق تماما مع هذا الرأى،، والثانى؟

– الثانى، أنه لايجب أن نأخذ الأمر على محمل الجد، لأن هذا هو مايرغبون فيه.

قال خالد عمر وهو يطلق ضحكة صاخبة وعميقة : اتفقنا.

أثارت الضحكة العدوى، لأن العديد من رواد المقهى قد رددوها لتوهم، وتداولونها كل بطريقته، استدار خالد عمر حوله وراح يغمز لهم بعينين ممتنتين، وكأنه يشكرهم أنهم انتبهوا لمرحه، وكأنه يشجعهم على متابعة هذه البهجة الهذيانية، ثم هدأ، أما الآخرون فقد استمروا فى الضحك الذى انطلق دون أى قصد. لم يشارك هيكل فى هذه البهجة العامة. وظل جالسا فى مقعده بكل جمود وشموخ. يراقب بكل رضاء تصرفات صديقه الجديد، إنه مشدوه للغاية بهذا الرجل القصير المرح المكرش ذى الشارب اللامع المدهون الذى تفوح منه رائحة البنفسج. إنه حالة بسيطة . رجل لم تفسده النقود. ظل على نفس طريقته كشخص إلى عهد قريب يمشى حافى القدمين وينام فوق نفس الرصيف. بدا متنكرا فى ملابسه المتعددة الالوان. فلم تستطع كل ثروة العالم أن تأخذ منه هذه البهجة الأصيلة. هذه المشاعر الخشنة التى تبدو فى كل حركاته. بدت ضحكته كأنها تحد سافر وساخر فى مواجهة السلطات. أكمل خالد عمر:

– هذا أمر بديهى.

قال هيكل : نعم، إنها لا تمنع إلا القليل من الناس أن يتصرفوا بمثل هذه البديهية.

– ماذا يهمنا؟ هل ستكون من الناس الذين يودون حكم العالم؟

رد هيكل: ليحفظنى الله. لا أود حكم العالم مهما كان. فلا يوجد أسوأ من هؤلاء الذين يحكمونه . إنهم جميعا من الطموحين.

قال خالد عمر : أعرف ذلك. ولكننى سعيد أن أعرف ذلك على لسانك. لقد قابلت فى السجن بعض هذه النماذج، بدوا لى كأنهم من عجينتى بمظهرهم المألوف. كانوا أكثر انتفاخا من امرأة حامل. لقد أثرت معايشتهم علىّ فى السجن تأثيرا مريرا.

قال هيكل بحقد باد انهم يثيرون الملل. هدفهم هو تغيير الحكومة بأخرى.

هذا ماقيل بالضبط. كان أغلبهم يحلم بأن يصبح وزيرا، هل يمكنك أن تتخيل طموحا أكثر قذارة. أرجوك لاتكلمنى عن هؤلاء الناس.

– أنت على حق، إذن، إسمع، أريدك أن تعرف أن هذا يجعلنى متوافقا معك. لقد حكى لك صديقنا كريم اننى بحكم القدر أصبحت تاجرا محترما وموسرا . بعد أن كنت فريسة السجن. انها قصة جميلة، ونبيلة، سوف أشرحها لك بالتفاصيل، لأننى واثق أنك ستفهمها. باختصار لقد كسبت كل أموالي بطريقة حمقاء وبالغة العبثية، حيث تفتحت عيناى على جنون العالم. لذا فأنا أريد أن أضع هذه النقود في خدمة هدف عقلانى عادل، أريد أن أساهم فى جنون العالم، هل تفهمنى؟

– طبعا . سبب عقلانى، أنت لايمكن أن تعبر عن أفكارى أحسن من هذا .

– من غير المجدى أن أخبرك انني اضع كل ما أملك تحت أمرك. أنا متعجل لمعرفة مشاريعك؟

رفع يده ووضعها على ذراع هيكل بحركة أخوية.

سكت هيكل، ليس لانه لايوافق على هبة التاجر، ولكن بكل بساطة، لأن قلبه يدق فى كل مرة يتأكد فيها من أخلاق هذا الرجل الذى لا يكاد يعرفه، إنه يقدم له ثروته، أى نوع من الدوافع تدفعه كي يتصرف بمثل هذه الصورة، هذا التاجر الامى كان بالتأكيد شخصا غريبا . ماذا قال؟ إنه يساهم فى جنون العالم.

خاف هيكل من هذا الصفاء الذى يفوح من روح خشنة. هل قابل صديقه لتوه ؟ وهل هو فى حاجة اليه ؟ وأى متعة تنتظره من هذا الهدف الأحمق الذى يستعد من أجله للتضحية بثروته ؟ ثروته ؟ لم يطلب منها هيكل شيئا . هل يفكر أن يبدد ثروته بدافع التسلية؟ ليس عليه سوى أن يحتفظ بها . والعرض مجانى.

سحب خالد عمر يده فلمعت الخواتم لحظة فى الضوء، هنا عاد النادل اليهما . قال هيكل وهو يمسك الكوب الذى وضعه النادل على المائدة:

– لنشرب نخب مفاهيمنا المشتركة.

رفع خالد عمر كأسه ثم طرقا الكأسين.

كان الشارع مزدحما بمتنزهي المساء الباحثين عن الهواء المنعش بعد يوم قائظ. حيث يمر بعض الموظفين المتحجرين المتعجرفين، أرباب أسر، «متكابرين» تتبعهم زوجاتهم وأبناؤهم. وأيضا ثنائيات من الشباب يمسك كل منهما بيد الآخر، بمهابة واضحة، لكن أحد من رواد «الجلوب» الجالسين على الشرفة لم يلتفت الى هذا الموكب الكئيب، ليس من أجل هذا الحشد البشرى الذى يموج هناك. فالكل ينتظر بصبر نافد مرور انثى ذات تكوين جسمانى متميز، قادر أن يثير فيهم المتاعب الشهوانية، ومن وقت لآخر ينطلق صخب حاد وكأنه صفارة إنذار تعلن اقتراب الترام التائه في الضواحى، السائقون يرتدون زيهم الأكثر تميزا فى الزحام، يسبون الحشود المتكاسلة التي تموج وسط الطريق، التى تنشد النسمة الخفيفة القادمة من البحر. حاول هيكل دون جدوى أن يميز فى هؤلاء الرعاع الوجه الطيب والسمح لبعض المتشردين الهاربين من براثن الشرطة، لم ير أحداً منهم. حقا، لقد أصبحت شوارع المدينة منحوسة بشكل غريب، لقد خلت إلا من الوجوه الشعبية. إنهم الحزانى والمحتاجون، فالمرء محاط فى كل مكان بالموظفين، لم يستطع هيكل أن يمنع نفسه من التفكير فى الرد على الشحاذ عندما سأله أن يأتى إليه كل شهر ليأخذ المبلغ الذى خصصه له. لقد رفض بذلك أن يجعله موظفا، أى أن يصبح شحاذا مألوف الوجه. أى أهانة إذن أن يكون من هذه الذرية التى لا تعرف سوى ممارسة الوظائف، أن تتبع الروتين العام. نفس الحكايات المألوفة لهؤلاء الموظفين الصغار الذين عرفوا بالقدرة على العمل والمثابرة. إنه من الصعب التفكير فى أن الجنس البشرى لم يفرز سوى رجال عظماء، وموظفين صغار يتطلعون للترقية ، وفى بعض الحالات الضرورية، يمكنهم أن يقتلوا الآلاف من أمثالهم، من أجل الحفاظ على وظائفهم والطعام الأنسب لأسرهم، هذا الشيء الوغد الذى يدعو للرثاء والذى يفرض الإحترام وإعجاب الجماهير.

دفع خالد عمر الهواء بيده كي يصطاد ذبابة حطت على طبق المشهيات، ثم القى على هيكل نظرة خالية المعنى . لماذا سكت رفيقه؟ لماذا راح يهتم بحركة الشارع؟ هل يتحدى نفسه؟ فكر خالد عمر طويلا فى الطريقة التى دار بها الحوار،

وتساءل اذا كان هيكل سيلبي مطالبه في هذا اللقاء الأول. أعطاه سكوته الشعور أنه متردد في كشف مشاريعه له. فافتقاد الثقة يؤلمه. ألم يضع كل ما يملكه رهن إشارته؟ أعجبه البرود الظاهر لهذا الشاب، وغريزية أساليبه، وابتسامته الساحرة وازدراؤه إنه يذكره بالعلامات الجلية لروحه الأرستقراطية، لاشك أن خالد عمر معجب بهيكل بلا حدود من خلال كل ما قاله له، فهو ينتظر أن يوافق أن يمنحه ثروته واخلاصه. قال هيكل:

– أشكر لك كرمك، من المؤكد أنني في حاجة لمساعدتك، لكن هذا لن يتطلب ثروة كبيرة، يكفي مبلغ قليل للغاية.

– مهما كان فأنا تحت أمرك.

عقد هيكل ساقيه، وشرد لحظة، وقد ركز عينيه على جموع المارة. ثم استدار نحو خالد عمر، وقال:

– حسنا، أعتقد أنني لست في حاجة أن أعرفك، ان الرجل الذي يحكم هذه المدينة الآن قد تجاوز حدود الرعب والغباء.

– أعرف، أعرف أيضا أن كل العصبة السيئة من رؤساء الصحف يتبعونه ولا يتوقفون عن التغني بتملقه.

– ليس هذا رديئا ، بل على العكس، فمهمتنا ستكون سهلة ، لماذا إذن؟

قال هيكل سهلة لأنها ستكون عادية، سنغني متملقين هذا المحافظ البشع وسوف نتجاوز غباءه.

– لقد علمت من كريم أن الصحف قد توقفت عن نشر رسائلك التي تكتبها للقراء المتحمسين، على كل فهي فكرة رائعة، اسمح لي أن أهنئك.

– الأمر لا يتعلق بهذا، سوف نفتتح مؤسسة دعاية من طراز فريد، شيء ما لايمكن للبوليس السياسي أن يلحظه، سنبدأ بطباعة إعلانات عليها وجه المحافظ ، سنجبر كل السذج أن يضحكوا منه وبمساعدة أصدقائنا، سوف نعلق هذه الإعلانات فوق حوائط المدينة، هل يمكنك أن تقوم بعمل من هذا النوع؟

– طبعا. ستعتقد كل المدينة أن كل هذه الإعلانات مطبوعة بواسطة خدمات البلدية المعنية بالمطبوعات.

– ومن يشك؟ هل رأيت أبدا ثوارا يناضلون محافظا أو يتحدونه وهم يتغنون بمديحه. هناك شيء آخر وهو أن المحافظ نفسه سوف يتخيل أن هذا قد تم بواسطة أحد أتباعه المخلصين وسوف يرضى غروره بالتأكيد. انه شديد الغباء كي يفهم الامر. وحتى عندما يفهم، سيكون من الصعب أن يمسك شيئا. وسوف نستمر في التملق بكل جدية، ولن تكون هناك أي مخاطرة، ولن يجرؤ قط في القبض علينا. أنا مستعد من ناحيتي أن أقول عنه كل ما لدينا أمام أي محكمة. ولكن هذا لن يحدث.

قال خالد عمر. كلماتك تملؤني بالأمل. بالله، لا أعرف ماذا أقول..

رد هيكل ليس هذا كل شيء، فهذه الإعلانات ليست سوى بداية. فأنا لي طرق أخرى سوف تجعل المحافظ مشهورا في كل البلد. سوف يصبح مثيرا للسخرية لدرجة أن الحكومة سوف تضطر أن تخلعه.

تململ خالد عمر على مقعده، وقد سيطرت على نفسه شيئا فشيئا مشاعر رقيقة ، لقد بدا وكأنه اكتشف تصدعا في عقل هيكل. هذا التصدع ذو أهمية كبرى، يستهدف لتدمير شخص له مكانته كالمحافظ. أليس هذا متفق مع رغبته؟

ألزمته هذه الفكرة الصمت للحظة.

– أخبرني. هل سنراه حقا وقد تم خلعه؟

– طبعا، لا. أين ستجد رجلا أنسب منه سخرية. للأسف سوف نضطر أن نفعل هذا. فليس لدينا الخيار.

قال له خالد عمر: احس أنني سأتسلى على أحسن مايكون.

التفتت إمرأة تبدو غانية، ذات ثديين ناهدين في مشدهما وكأنهما سفينتان في أعلى البحر، ونظرت الى شرفة المقهى. مرت وأطلقت نظرة جانبية داعرة، فاقتفى زبائن المائدة المجاورة أثرها على الفوريعبارات الغزل كأنهم عارفون ببواطن الامور. تكلموا كأنهم جنود داخل خنادق أكتشفوا الحقيقة الاساسية

لعالمنا، ثم راحوا يطلقون التساؤلات والتعبيرات الغامضة المجسدة، وأخذوا يطلقون انتقاداتهم حول ادق التفاصيل الحميمة لجسد المرأة المجهولة. قال هيكل:

– ألا تبعث النساء على تسليتك بما فيه الكفاية؟

رد خالد عمر: أحب النساء. ولكن هذا لايقارن بمتعتي فيما يتعلق بهذه الشهوة.

– هل أنت متزوج؟

– حسن. بصفتي تاجراً محترماً يجب أن أشرح لك أنها ليست نفس الطراز دائما. لست من الاثرياء الاغبياء الذين يغيرون سياراتهم كل عام ويحتفظون بنفس المرأة. أنا أغير المرأة كل عام، وليست لدي سيارة.

قال هيكل. أنا سعيد بهذا لأجلك.

– أحيانا، أتخلص منهن في فترة قصيرة. صدقني. فالنساء تصيبهن الشيخوخة أسرع من السيارات.

ثم أكمل بعد لحظة:

– لنعد الى عملنا، ماذا تطلب مني؟

قال هيكل: كل ما أطلبه. ألا تعتقد أنه من الصعب العثور على رجل له مصادره مثلي. هاك. فأنا في حاجة الى مطبعة أولا. ثم الى مكان سري نقوم فيه بعملنا. هل يمكن أن تدبر لي هذا؟

– كل ماتريده. ستكون لك المطبعة خلال يومين أو ثلاثة أيام على أقصى حد. الا يمكن أن أفعل شيئا آخر؟

– الآن، هذا يكفي، أشكرك. فسوف أتكفل بالباقي.

– اعتقد أنك ستكتب نص الإعلانات بنفسك.

– لا . ليس أنا، سوف أكلف به أحد أصدقائي، انه ناظر مدرسة، يدعى «عرفي» ، لعلك تعرفه.

- أعرفه جيدا. فأنا أحد تلاميذه، وقد تعلمت القراءة في مدرسته.

هتف ميكل بإعجاب غير مصطنع: هل ذهبت الى مدرسة عرفي. بشرفي أنت راجل رائع، لماذا وددت تعلم القراءة.؟

لقد غار التاجر من رؤية كريم أو أي شخص من أصدقائه المتعلمين، وقد راحوا يقرءون مقالات الصحف، مما جعله يحس أنه خارج اللعبة. وكان عليه أن يتوسل اليهم أن يقرءوا له مقاطع من الصحف التي تجعلهم بالغي السعادة. ولكن بالتأثير يمكنه أن يضحك بدوره وربما أكثر من الآخرين، لكن هذه البهجة المتأخرة لم تكن تنقصها المرارة ، وقرر التخلص من هذا الامر. بأن يتعلم القراءة، أراد أن يتعلم بلا وساطة بعيدا عن الخسائس العالية التي يمارسها طغاة السلطة:

- أحب دائما أن أتحقق من كذباتهم. إنها متعة تأخرت في معرفتها. للأسف، فأنا لم أتقدم كثيرا، فأنا تلميذ بليد للغاية.

- هل كنت تذهب هناك بانتظام؟

- لا. بين وقت وآخر. كنت أحب عرفي كثيرا. هل تعرف أن أمه أصابها جنون؟

قال ميكل: أجل. كنت هناك. فمنذ بضعة أشهر أصابتها حالة فراغ، نوع من الجنون.

- ليس الامر جسيما .

- الامر لايمنع أنها تشكل بالنسبة له عبئا ثقيلا. فهو لايمكنه أن يعتنى بها. وفي نفس الوقت يهتم بتلاميذه، قبل أن يحدث هذا . كانت تساعده في عمله.، إنها امرأة مثقفة، صدقني، فصديقنا يعيش في موقف مأساوي. رغم أنه لا يود أن يمتثل، اقترحت عليه مرات عديدة أن أرسلها على حسابي الى مستشفى متخصص لعلاج هذا النوع من الجنون. ولكنه رفض بإباء. لم أود أن ألح أكثر خشية أن اجرح مشاعره. انه أمر بالغ الحساسية. ألا يمكنك أن تناقشه في هذا؟ أرغب من كل قلبي أن أقدم له يد المساعدة. أنا واثق أنه سيستمع لك.

استغرق هيكل وقتا فى التأمل. فقد كان يعرف عرفى منذ أمد طويل ولا يجهل كل الحب والعاطفة التى يكنها ناظر المدرسة لأمه. فهو يريدها قريبة منه حتى وهى مجنونة.

– أعرف عرفى جيدا، انه رجل بالغ الذكاء، يزعم أن أمه ليست مجنونة. ومؤمن بأن فى العالم الذى نعيشه يرى البعض أن الجنون أمر عبثى، أعتقد أنه على حق.

– سمعت أنها كانت تقوم بالقاء بعض الدروس للتلاميذ اثناء غياب عرفى. وكما يبدو فالاطفال لم يفهموا شيئا، لقد اعتقدوا أنها مريضة.

قال هيكل. لكننى بصفة شخصية كنت أحب رؤية هذا المشهد.

بدا خالد عمر مذهولا من هذه السخرية:

– أرى أنك رجل متطرف في افكاره. وأنا أحب ذلك.

– لماذا أوجد فرقا بين جنون اصدقائى، وجنون الآخرين ؟

قال خالد عمر وهو ينفجر ضاحكا فهمت

لكن ضحكته هذه المرة لم يكن لها صدى بين زبائن المائدة المجاورة، لسبب غامض، فكل الزبائن قد بدوا فى حالة شرود ، لانه لم تمر أى أمرأة أمام المقهى منذ قرابة ربع ساعة..

(٦)

بدا الصمت الذى ساد الفصل مربكا من خلال صوت متميز استطاع عرفى أن يعرفه دون أن يرفع عينيه. انه أحد التلاميذ، يجلس فى المقعد الاخير يقزقز لب البطيخ المحمص، منذ لحظة، تردد فى أن يتدخل خشية أن يثير انتباه التلاميذ الآخرين الذين أثقلهم حر الظهيرة المميت. فهو دائما مستعد لأن يثور عند أقل حركة ، لاشك أن الشراهة الصاخبة لهذا الصبى الجرىء تمنعه أن يركز، لقد تشتت إلهامه، إنه فى حالة كتابة نص الإعلان الذى يمتدح منجزات المحافظ. والذى يود هيكل أن يعلقه على حوائط المدينة. وتحت مظهره الرقيق والهادىء، ابتهج داخليا وهو يقوم بصياغة المديح لتلك الشخصية المعروفة ، فهذا العمل المهم، بالمعيار الذى يكتب به، يأخذ شكل خطبة عصماء مخصصة للقراءة فوق مقبرة بطل همام. كان عرفى مقتنعا بمهمته كمداح، والتى جعلته يؤمن بكل التملقات الحمقاء التى يوجهها للمحافظ، ولطيبة قلبه، راح يضخم كل السمات والفضائل الخيالية مستخدما كل التعبيرات التى تستخدمها الصحف حين تمجد المجرمين المعروفين، الذين خاضوا الحروب العديدة بلا وعى .

من جديد، أصاب الصوت الساخر اذنه، توقف فى وسط جملة، ثم رفع رأسه، وبدا كأنه قد قرر أن يضع نهاية لهذا التلميذ العاصى أثناء حصة الظهيرة المقدسة.. لمح المذنب بعينيه، انه «زرطة» المرعب، غلام فى الثانية عشرة من عمره، شخص لايباريه أكثر عباقرة الكذب فى هذا القرن. هنا تساءل عرفى عما إذا كان لديه فى الفصل وزير من حكومة السلطة. لاشك أنه كى يتخلص من سطوة كذبات

هذا الطفل ستكون خطئا قدريا . كان عرفي يعرف أن ليس عليه سوى أن ينتظر إشارة لكي يستيقظ من غفوته ، أطلق التنهيدة بصبر نافد لسلوك تلميذه. ومن قمطره القائم فوق المنصة حيث يسيطر على الفصلْ الذى يوجد به عشرون ولداً وبنتا من السادسة الى العاشرة - انكفئوا ينسخون في كراساتهم بعض اسماء الإشارة المكتوبة فوق السبورة السوداء .. هذا الامتحان كان اختياريا، انكفأ أغلبهم على مقعده، لا يحسون بطعم الحرص على المعرفة، والسبب هذه الحرارة الخانقة. كأنهم مضربون ومتبلدون، تركوا الذباب يملأ وجوههم بلا مقاومة. فالفصل جزء من مسكنه الواقع فى الدور الأسفل لمنزل قديم يشغله عرفي مع أمه. هذه الغرفة الواسعة بها منافذ مفتوحة على الرصيف، وتطل على حارة تجارية، وكالعادة فإن مرور جموع المارة الذين لايُرى منهم سوى السيقان، يثير عدوانية الصبية، الذين يتسلون، وقد تسلحوا بالنبال، بأن يتعاملوا معهم كأهداف، ولكن في هذه الساعة تبدو الحارة خالية. فلا أحد يجرؤ أن يلقى نظرة في هذا الحر.

أخرج عرفيَ منديله من جيبه، ومسح جبهته نصف العارية بصلعته المبكرة، هذه الصلعة هي واحدة من علاماته كمدرس، لم ينقصه أبدا أن يعتنى بها وأن يلمعها وكأنها قطعة من الأثاث الثمين في مساكن الفقراء، هناك اعتقاد في الحي، أن سقوط الشعر دليل على الحكمة والمعرفة. تبنى عرفي هذا الوهم وهو يضع رأسه دائما فوق دماغه عندما يكون في حضرة الآباء المشعرين الذين يتعاملون معه، كشاب بلا مستقبل، ولكنهم لم يتوقفوا عند العلامات الخارجية لعبقريته الفكرية. كان عرفي أيضا ضعيف النظر للغاية. فقد كان يرتدى نظارة من الصلب المطعم بزجاج سميك. تبدو النظرات خلالها وكأنها تمر من مرشح قوى، ناظر مدرسة أصلع يعانى من ضعف البصر، انه أكثر حرصا مما يجب حتى يكسب الثقة من جموع الأميين، اقتنع بهذه المسلمة وأن رجلا أعمى لايمكنه أن يضمر شراً .

بالمقارنة بخارج الفصل، بدا المكان أشبه بواحة منعشة، كان عرفي يحب صفاء مابعد الظهيرة بعد أن ينام الأطفال، الذين أجهدهم الحر، واضعين حدا لمتاعبه، يمكنه إذن أن يتفرغ للمتعة الفكرية، فبعد سنوات قضاها في المكاتب

المتربة، بإحدى الوزارات، انتهى بأن وجد وظيفة مناسبة لطبيعته، وطيبته، ورقة سماته، جعلته دائما يفضل صحبة الأطفال عن الكبار. فى الحقيقة، فقد كان الكبار يخيفونه. ففي كل واحد منهم يرى قاتلا شرسا . وعرفي فى حاجة إلى أن يحيا بلا لف ولا دوران، ولا مماحكة، وخاصة أنه قادر على الغفران. ولكن كيف ينظر للكبار؟ إنهم مملوءون بالأنانية، والغباء والقبح، والطموح الخائب والعسر مما يفضله عمن في مثل سنه، الطموح، إنهم جميعا معذبون بالطموح. الوصول، الوصول الى ماذا؟ ثم عندما يصلون إلى المجد أو المال، فإنهم يصبحون أوغاداً ثقلاء، وحوشا تعج بالعجرفة، غير قادرين على الإحساس بأقل ذرة من الحس الإنساني، أما مايعجب عرفي عند الأطفال، فهو هذا الفقدان الشامل للطموح، فهم يعيشون سعداء فى حياتهم اليومية، ولا يطمحون سوى فى أن يظلوا أحياء. ولكن كم يدوم هذا؟ سرعان ماتمر الطفولة ويتسرب الشباب الرائع. هذه الحقيقة الأكيدة تملأ عرفي بالمرارة.

فهو والأطفال سيصبحون فيما بعد رجالا، وسوف يستكملون مسيرة الذئاب، وسيخرجون من حبسهم المليء بالنقاء، ليضيعوا فى خضم القتلة الكثيرين.

جاءته فكرة فتح مدرسة خاصة يوما كرد فعل ضد التعليم الرسمى الذى يرسخ السفالة في أذهان الأطفال، والخسة والدناءة لمجتمع عفن كنظام التعليم إنه إهانة للأحلام البريئة والساحرة لعالم الطفولة. كان عرفي يتمنى. منذ أمد طويل، أن يكون لديه شيء يقوله للأطفال. وليس الكبار فى حاجة إليه، لم يتأخر فى تنفيذ مشروعه،. وبمعاونة أمه التى كانت تساعده، من ناحية أخرى فى مهمته، خصص حجرة من مسكنه بالدور الأرضى، وأثثها ببعض المقاعد، وبسبورة سوداء وكى يعطى عمله جدية،،. أوصى رساما من الحى بعمل لوحة ضخمة. راح يعلقها اعلى باب المنزل، مما أثار انتباه عائلات عديدة من الحى لهذا الكهف العلمي،. وخاصة المصروفات المتواضعة التى يطلبها منهم، فراحوا يرسلون أبناءهم قبل أن يجف رسم اللوحة تماما.. ووقعت بعض الأشياء الغريبة. فعلى عكس التوقعات، فإن الأطفال بدوا مخبولين بمدرسهم. وعاندوا الآباء والأمهات كي يذهبوا ليجلسوا فوق مقاعد هذه المدرسة الغريبة، أدهش هذا آباءهم بشدة - وبالهم من أناس طيبين

جهلاء – لم يشكوا قط فى أن ذريتهم لديهم حمية التعليم. هؤلاء البائسون يجهلون أن أطفالهم يعيشون هنا فى جو فوضوى يتناسب مع أذواقهم وأن عرفى نفسه رغم صلعته ونظارته الضخمة ذات الشريط الصلب، كان حكاءً خطيرا. فهو يتكلم إلى الأطفال ويبوح عن مشاعره بلغة تختلف عنْ لغة الكبار. كان يلقنهم مبدأ واحدا وهو: معرفة أن مايقوله الكبار مزيف ولا أهمية له بالمرة. وهكذا ففى فصل عرفى يوجد تشكيل جيد من الأفكار العقلية لايمكن لأى سلطة أن تنطق بها. وكم أحس عرفى نفسه أنه يختنق لسماع أفكار غريبة فى أفواه التلاميذ بمجرد خروجهم من الطفولة.

ها هو الصغير «زرطة» يتصرف الآن بلا حياء بأسلوبه الفظ، إنه يبصق بقايا اللب الذى ينتهى من قزقزته فوق الأرض، هذه الأصوات أثارت عرفى، لأنه كان منهمكا فى عمله، والآن لقد حان وقت التدخل، تكلم بصوت رقيق لكنه حازم:

– هيه ... ياصغير. اذهب وقزقز لبك فى الشارع.

ابتلع «زرطة» اللبة التى كسرها لتوه بين أسنانه وراح يتبع حركة ذبابة تطير أعلى السقف.

أمسك عرفى المسطرة الموضوعة على قمطره، ثم لوح بها فى اتجاه الطفل:

– هيه، يازرطة. أنا أتحدث إليك.

بدا «زرطة» على وشك البكاء وقد بوغت، بدا أشبه بخنزير أكل جيدا. إنه أكول نهم قادر على التهام كل مايقع بين يديه، لقد وصل إلى درجة بشعة من البدانة لاتتناسب سنه، قام كى يرد:

– فى الشارع. يا أستاذ. فى هذا الجو، بشرفى أنت تريد موتى.

– هيا، اذهب، أرحل.

– ولكننى جوعان، يا أستاذ. فأنا لم آكل منذ ثلاثة أيام.

قال عرفى وهو يهز رأسه: حفظك الله. ماذا ستصبح بلا كذب. للأسف، سوف تتركنا قريبا، فقد أصبحت رجلا.

بدا هذا التلميح من الأستاذ لزربطة قاسياً وظالماً، تململ، لصق يديه على بطنه. كأنه يحاول أن يُخرس الجوع الذى ينهشه، قال منتحباً:

– لماذا تشوه سمعتى يا أستاذ. ماذا فعلت كى أستحق هذا؟

توقف التلاميذ القلائل ، الذين كانوا ينسخون الكلمات المكتوبة على السبورة السوداء فى كراساتهم. عن عملهم، أما بالنسبة للآخرين، فقد استيقظوا وهم يتثاءبون وشرعوا فى تأمل زميلهم، الذى أصبح هدفاً للمدرس، شرح عرفى بهدوء:

– سأقول لك لماذا يجب أن تتركنا. أولا لأنك أصبحت بدينا ثم لأنك تكذب مثل الرجال الذين أصابهم الثراء ، لايهمنا أن يكون لدينا شخص مثلك بيننا. فكذلك لايمكن أن يبقيك هنا أبدا. لقد حان الوقت كى تغشى العالم. الآن كف عن قزقزة هذا اللب. وعليك أن تنام مثل زملائك.

عانى زربطة. ففكرة ترك المدرسة قد أثرت فيه بقوة: النوم لايغلبنى. ولكن أعدك ألا أقزقز اللب. لقد قطعت شهيتى يا أستاذ.

قال عرفى: أرجو أن يكون هذا للأبد.

بدأ بعض التلاميذ فى تأمل زربطة وهو يكاد أن يصل إلى حد الترهل. ثم طلبوا منه بكل جرأة أن يشاركوه لبه، فساءت الأمور وأصبح على عرفى أن يضع حدا لهذه الغارة المفاجئة، وهو ينطق بالجملة الحاسمة التى يستخدمها فى مثل هذه الحالات:

– إذا لم تلتزموا الهدوء، سوف أطردكم جميعا وأغلق المدرسة..

وكأنه هددهم بالموت، أحدث التهديد أثره. وفى الحال ران صمت فى الفصل، واستطاع عرفى أن يعيد صياغة نصه. فانتهى منه. أحس بالمتعة لأنه أتقنه، وردد بعض الجمل للتأكد من معناها اللغوى، والصفات المفرطة وهى مطبوعة ومعلقة فوق جدران المدينة. إنه نداء من ميت، لقد توغل عرفى فى أغوار الفكرة التى أسفرت عن عقل هيكل: من أجل خدمة الثورة، فإن السلاح المرعب هو السخرية. والسخرية عند عرفى سائدة فى كل مكان. فهو منذ بضعة أشهر يعانى من جرح دام يطغى على طبيعته الما...، أعتقد أن أى سخرية لايمكنها أن تخفف

عنه: فقد أصبحت أمه مجنونة، وتحولت إلى نوع من الكاريكاتير البشرى. ومنعه إشفاق البنوة أن يتصرف كساخر على هذا الوجود المخيف، فإذا كانت هناك امرأة أو أم مليئة بالرقة وإنكار الذات، فلماذا هذا الخداع؟ أمام هذا الجسم الواهن، والوجه المثير للعاطفة الذى يبدو كأنه يغوص يوما وراء يوم أكثر فى العتمة، لم يحس بالقدرة على الضحك. أجل، إنه فى بعض اللحظات، يتخلى عن روحه الساخرة، ويسقط فى هلع الصخب القادم من أعماق الخلو،ويحس أنه : سيفقدها عمّا قريب، سوف تسكن فيه المعاناة كاملة. وسيفقد حسه الساخر شيئا فشيئا، وسيصبح فريسة للنحس واليأس. فالإنسان مسكين حقا، غير جدير أن يبلغ مدارك الطفولة التي يحبها كثيرا، أحس أن لديه الشعور بالخيانة ليس فقط بعقله النقي. ولكن تجاه هيكل ومجموعته الساخرة، فرغم أن هيكل ينظم هذا الموضوع الأبكم الأكثر اكتمالا، فإنه مخلوع بالتاكيد، فلا شيء ينفلت من الرقة البادية التي تبدو فى نظرته وكأنها تخلصك من كل الشوائب الفاسدة فى روحك، وكأنه من الأفضل أن تغلفك بحبها المتكابر، لم يساوره أى شك فى أن هيكل يريد أن يراه يسخر من جنون أمه. انتظر منه هذا الدليل الأكيد، وكأنه يبلغ شرفا كبيرا، أو نوعا من المتعة الخارقة . إذن لماذا يبدو مغموما ؟ هل بسبب جنون العالم، في كل لقاء يسعى عرفى أن يكتشفه وهو يراقبه . إنه موقف سخيف ومشين ، حيث يملك هيكل أسلوبا جميلا وهو يبدو طيبا وكأنه أخ . بينما عرفى يتكدر من وساوس العالم القاسية .

دقت خطوات فى الممر ، رفع عرفى عينيه نحو باب الفصل، بقى متجمداً لثوان. منتظرا قلقا ، توقع رؤية أمه. فى مكانها رأى كريم فابتسم له، تخفف رد الشاب على ابتسامته بحركات تعنى أنه ليس لديه مايزعجه وأنه ينتظر أن يكلمه فى نهاية الحصة، ثم وبخفة، توجه على أطراف أصابعه نحو مقعد وجلس إلى جوار فتاة صغيرة صبغت شعرها باللون الأحمر الطوبى. وترتدى فستانا برتقالى اللون ، فبدت كأنها ثمرة غريبة الشكل، كانت جميلة وقد اعتاد كريم أن يغازلها .

احتفظت الفتاة الصغيرة بعينيها منخفضتين وتصرفت كأنه غير موجود، داعب كريم شعرها ، وانحنى نحوها وهمس فى أذنها بنبرة عاطفية:

– إذن، فأنت تتعلمين ياروحي؟

لم ترد الفتاة الصغيرة، كشرت ، وأدارت رأسها وكأن ذبابة حلقت حولها، أكمل كريم:

– ماذا هناك، هل هو خصام أم ماذا؟ ردى ياروحي.

قالت الفتاة، دون أن تستدير بصوت منخفض ومبتهج:

– أين الهدايا التى وعدتنى بها منذ فترة طويلة يا «بكاش» ؟

انتحب كريم بسخط ظاهر:

– هكذا النساء، كنت أعتقد أنك تحبينني لذاتي. آه. كم أنا بائس.

واستند على القمطر ورفع يده إلى جبهته وأطلق تنهيدة عميقة. وهو يراقب الفتاة من طرف عينيه. وانتظر أن تتبعه ولم تتأخر. أحس بالفتاة تتحرك ثم راحت تلمس ذراعيه وقالت فى نفس واحد: لكن أنا أحبك.

أحس كريم بالبهجة داخليا. فهذه الملهاة العاطفية يمكن أن تجعله سعيداً، فالنساء مهما كن، فى السابعة أو السبعين، حساسات لنفس التملق، والزمن لايدخل فى الحسبان. يمكن اغواؤهن بنفس الطريقة، داعب شعر الفتاة الصغيرة وبحركة رقيقة متناغمة، ثم ألقى نظرة على الفصل. بدا له أنه من الرائع أن يجلس ممددا فوق مقعد المدرسة، وأحس أنه يتصرف كتلميذ. فتح كراس الفتاة الصغيرة. ثم بدأ فى الكتابة. بحروف كبيرة مثلا شعبيا عن جحود البشر: «علمناهم الشحاتة سبقونا ع الأبواب». كتب كريم الجملة عدة مرات على طريقة تلميذ بليد. لقد نسى سنه، وسبب حضوره إلى هذا المكان، ولم يفكر سوى فى الفتاة الصغيرة التى ترقبه جامدة. لم تر فيه سوى تلميذ ذكيّ.

ظل هكذا ربع ساعة قبل نهاية الحصة. ولكن عرفى اختصر الجلسة:– هيا يا أطفال، أنصرفوا.

احتج بعض التلاميذ الذين استيقظوا مبغوتين الوقت لم ينته بعد يا أستاذ.

تدخل عرفى: لا اعتراضات. لقد رأيتكم بما فيه الكفاية اليوم.

انتهى الأمر بالتلاميذ، وقد أحسوا بموات روحهم ، حاولوا أن يبذلوا ما بوسعهم بأن جمعوا متعلقاتهم وتركوا الفصل. ومع ذلك لم يذهبوا بعيدا، تناثروا في الحارة باحثين عن ركن ظليل، على مقربة من المدرسة، وما إن غادر آخر تلميذ، حتى نزل عرفي من فوق منصته واستعجل اللحاق بكريم. الذى لم يغادر بعد مكانه. قال وكأنه يعتذر:

– ألن أجعلك تنتظر طويلا؟

صاح كريم : ليس لدىّ ما أفعله. لكنني متلهف لقراءة نصك، أتمنى أن تكون قد انتهيت منه .

رد عرفي، وهو يخرج ورقة مطوية من جيب سترته الداخلي ويمدها لكريم:

– حالا . امسك .. واقرأ.

– هل أنت سعيد؟

– إنه جناب المحافظ الذى يجب أن يسأل هذا السؤال. فلست سوى كاتب متواضع لسيرته.

وكأنه يريد أن يتمتع تماما بهذه الملذات التى سببها هذا النص. بدأ كريم في اتخاذ وضع مناسب. ثم فرد الورقة. فما قرأه قد جعله تقريبا معتوها. يقال إن عاصفة قد هبت عليه. اهتز بضحكة مجنونة لا مثيل لها. أما عرفي فلم يتوقع مثل هذا النجاح. أحس بفخر شديد. اندهش قليلا. فبعض الأطفال، الذين فوجئوا بهذا الضحك الصاخب. انطلقوا من ظل المنازل وجاءوا كي يتأملوها في الدور الأرضي. وعند رؤية هذا الشاب الوغد، تأهب الجميع للسخرية، هدأ كريم بسرعة، وراح يجفف عينيه من دموع الفرحة التى ملأت خديه ووقف أمام ناظر المدرسة. قال وهو يسيطر على ضحكته :

– إنه أمر شديد السخرية. فبالإضافة إلى صورة وجهه، سيكون الإعلان مثيرا.

سأل عرفي : هل يعجبك حقا؟

– إنه بكل بساطة متوحش، أريد أن أريك إياه مطبوعا.

– هذا شأنك، لكن أخبرني : هل صحيح أنك تعلمت الطباعة؟

– إنها مجرد صدفة، أنت تعرف أنني قد تعلمت بضعة أشهر في مجال الطبوغرافيا في مطبعة، في الفترة التي اختلطت فيه بالناس، وهكذا مارست مهنا عديدة.

جلس عرفي فوق مقعده، مدد ساقيه التي أصابها تنميل من بقائها في غير حركة، ثبت ناظريه على حذائه الرث وأحس بشيء غريب، فواحدة من الفردتين أطول من الأخرى، ولبرهة غزا روحه غموض لهذا التباين، ثم عاد إلى رشده وبكل مودة، وضع يده على كتف الشاب، وقال:

– أنت صغير جدا، وتريد أن تدافع عن مصالح الشعب، أليس كذلك قد يقودك هذا إلى السجن.

لم تكن تلك هي المسألة، ولكنه أمر بسيط، لقد زعم أن الدفاع عن مصالح الشعب يمكن أن ينتهي بالمرء في السجن. رد كريم:

– طبعا، ولكنني لن أندم، لأنني في السجن اختلطت بالشعب، أنت تفهم أنه في مصنع ما يعامل البشر كالحيوانات، فليس لديهم الوقت للحديث مع زملائهم، من ناحية أخرى، فإن موضوعات الحديث الوحيدة تتعلق بالعمل، أو بالبلاد الفقيرة أو المرض الذي يبذر المصائب في الأسر، لاشيء سوى الموضوعات الصعبة ، بينما في السجن هناك وقت فراغ إنهم يتحدثون من أجل متعة المعرفة. إنه لأمر غريب، لكن السجان أقل بشاعة من أي مكان آخر أنت تعرف أنه قبل الذهاب إلى السجن كنت أؤمن أن الشعب ذا طبيعة عبوسة وأنه لا يعرف سوى المأساة؟ لم أكن أعتقد قط أنه مليء بروح الفكاهة، ومليء بخفة الظل، أجل اكتشفت هذه الحقيقة الأساسية لشعبنا فقط في السجن، وعرفت أن كل أفكاري عنه كانت مزيفة.

وبصفته مفكرا جديرا بهذا الاسم، كان عرفي أيضا في شبابه مناضلا من أجل مصالح الشعب، لكنه أخفى مشاعره وخجله ورعبه عن الناس، فابتعدت عنه أنظار الشرطة لأنه لم يتميز بمظهر الثوريين رغم حماسته للثورة فلم يعرف السجن قط، ولهذا السبب، فإن تجربة كريم تسمح له أن يتعلم بعض الوقائع

المجهولة بالنسبة له، أثاره فضوله، زاد من ضغط يده على كتف كريم وكأنه يشجعه على متابعة كلامه،

– قص عليّ هذا.

رد كريم: حسنا. لقد رأيت الشعب الذى أرغب فى رؤيته، بمعنى أنه معجون بالحقد ويحلم بالانتقام، أردت أن أساعده فى انتقامه، كنت أعتقد أنه مستسلم للقهر، لكننى وضعت فى حسبانى أنه أكثر حرية منى، لايمكن أن تتخيل النكات التى ألفتها عن هذا الموضوع، عندما أردت أن أشرح لهم أننى فى السجن لأسباب سياسية، كانت كارثة، اعتبرونى روحا ضئيلة أنا الذى كنت أفكر أن أعلمهم موقفى الثورى، عاملونى كعميل مدسوس من الحكومة، علمتهم الاحترام الشخصى، ظلت الحكومة بالنسبة لهم مصدرا للمزاح، وبكل ذكائى تعاملت مع الحكومة بجدية، ووجدت أن هذا عيب مع مظهره كشهيد بالطبقة العاملة كنت الوحيد الذى يعامل الحكومة بجدية.

علق عرفى: إنها ضربة صلفة لغرورك، اعتقد أنك كنت هناك بالغ البؤس.

– فى البداية نعم، ثم بدا لى موقفى فى قمة درجات السخرية، بدأت فى السخرية من كل شىء، فى النهاية أصبحت منشرح الصدر، فهناك شىء يبعث على الضحك، عليك أن تصدقنى، فتنوع هؤلاء الأشخاص الذين نقابلهم فى السجن شىء لايصدقه عقل، كل هؤلاء الناس لديهم عن الحكومة أفكار عجيبة، فالحكومة بالنسبة لهم عبارة عن عصابة من اللوطيين، لذا كنت مندهشا لكل ما أسمعه من حولى.

– هل كان السجن بالنسبة لك تجربة فاصلة؟

– هكذا كانت البداية، لأننى قابلت «هيكل» فيما بعد.

كان لاسم هيكل عند عرفى مكانة رفيعة، لذا سحب يده من فوق كتف الشاب وانشغل من جديد فى تأمل حذائه الرث، فكر فى المتعة التى على هيكل أن يحسها وهو يسمع اعترافات كريم حول إقامته فى السجن، هذه الحكاية ترد بالتأكيد على حاجته الأبدية للسخرية، فقد رفض عرفى أن يترك نفسه تحت تأثير سحر الهزل الغريب لهذا العالم، خاصة أنه يكافح ضد غواية الإعجاب به، لقد كان

يعرف جيدا أن العالم محكوم بأغبيائه ومجرميه الذين يجب عدم الاعتماد عليهم. ثم إن هذا لا يشكل له أية رغبة، ولا أية متعة سرية، لقد أحس بمرارة شديدة لهذا الموقف. وعلى عكس هيكل، فقد حاول أحيانا أن يعثر فى دوافع البشر على بعض الأمور الجادة أو العادلة، وللأسف فإن الدلائل تبدو ماثلة دائما أمام هيكل، وقد ينتصر إحدها فجأة، لذا ليس عليه سوى أن ينتصر. لقد صُدم عرفى وهو يفتش دوما فى كافة الأنشطة المنحرفة والفاسدة، وكأنه يخشى أقل شىء حسى متأصل داخل هذه الأقنعة البهيجة، أن يصدم بهجته. كان عرفى مجروحا دوما بهذه الأشياء الواهية. وهذا الأمل الذى يحتفظ به رغما عن كل شىء، يحكم عليه بعزلة روحية وسط زملائه ، إنهم رجال أحبهم وأعجب بهم، أخيرا، قال:

– هل نكتفى إذن هذا المساء؟ هل تعتقد أنه يمكن أن يحدث شىء آخر؟

رد كريم: سوف أطبع مايكفى كى نستطيع أن نبدأ هذه الليلة فى لصقها على جدران المدينة. علينا أن نذهب حالا. سوف تساعدنى فى تصحيح البروفات.

– أين توجد المطبعة؟

– فى مخزن يقع فى حى الجمرك، يملكه خالد عمر. سوف يلحق بنا هناك مع هيكل فى المساء

– هل سيأتى هيكل أيضا؟

– بالتأكيد. يجب أن يعطينا آخر التعليمات. هل تعرف أن هذه ليست سوى البداية ، وأن هناك مشاريع أخرى فى رأسه؟ لم أنم طيلة الليل وأنا أفكر فى كل هذا.

منع حماس كريم تجاه هذا العبقرى «هيكل» أن يظهر فى وجه المدرس بعض الحزن. فقد كان بالغ السعادة أن يشترك فى هذه العملية الخداعية الضخمة. فلم يعد هناك شىء آخر ماثل أمام عينيه.

قال عرفى: هناك أشياء لا أفهمها جيدا فيه.

– عمن تتكلم؟

– عن هيكل، اسمعنى. أنا أول من يعرف قيمة هذه الإعلانات تربويا.

لكنني أتساءل اذا كان هيكل يناضل ضد المحافظ فعلا، ولماذا لايجد هيكل في المحافظ باعثا أساسيا للبهجة ، هل يمكن أن ترد على هذا السؤال؟

- مايهمنا هو أن يُهاجَم المحافظ أولا، هذا هو هدفنا، نحن لاننشد سوى المزاح. اليست هذه فكرتك؟

– معذرة يا أخ كريم. لكن يجب أن ننسى الضحك أحيانا، أعرف أن هذا ضعف، لكنني لا أستطيع شيئا.

ورغم أنه قاوم التفكير في هذا الأمر، فإن كريم لم يكن يجهل شيئا من المتاعب التي تثير روح المدرس الحسية. فقد أصبحت أمه مجنونة، وهذا ليس في الواقع سوى حالة من المتعة. لقد فهمه كريم جيدا، كل مايهمه ألايجد نفسه في حضرة العجوز المجنونة: إنها تخيفه. وعندما يأتي إلى عرفي، فإنه في كل مرة يستخدم كافة الحيل كي لايقابلها في طريقه. كان لديه الإحساس أنها هناك تراقبهما . راح يسعل كأنه يستشعر اقتراب الخطر. ورغما عنه، أدار رأسه نحو الباب، وسرعان ما رآها. إنها صورة العجوز المجنونة أمام عينيه .. كانت هناك واقفة أشبه بخيال مآته على الباب، امرأة عجوز تبدو كأنها هيكل عظمي، لكنها تخفي ملامح غامضة من الفتنة، كأنها لم تأكل شيئا منذ أمد طويل، كانت تقضم كسرات خبز، وترفض كافة الأغذية الأساسية. بدت زائغة العينين، شعثاء الشعر، تأملت الفصل الخاوي من التلاميذ، والمقاعد الخالية، تجاهلت تماما ابنها والغريب الذي معه، وللحظة ظل كريم مذهولا، معتقدا أنه يرقب حية، ثم قام بطريقة آلية، وحيا ذلك الهيكل المتجرد من اللحم الواقف على عتبة الباب بصوته الضعيف.

احتفظ عرفي بهدوئه، وأشار إلى كريم. وقد ثبت عينيه الضعيفتين اللتين تكادان أن تبكيا على ذلك الكائن الغريب الذي ظهر.

تقدمت العجوز نحوهما واثقة في نفسها، وقد تملكها فكرة قديمة لسلطة الأمومة، فكر كريم أن يهرب، لكنه أدرك أن الوقت قد تأخر، لم تكن لديه رغبة في المزاح، وهو واثق في هذا ، هتفت العجوز:

– أين ذهب الأطفال؟

ثم أضافت وهي تنظر إلى كريم بارتياب: لم يبق منهم سوى هذا.

ويخطوة متأهبة اتجهت نحو المنصة وجلست فوق القمطر، وأمسكت بيدها البارزة العظام المسطرة، ثم أشارت بها نحو كريم:

– هيا، ياصغيرى، سمّع لى درسك.

كان هذا هو الجحيم بالنسبة لكريم، ألقى نظرة توسل إلى عرفي. نظرة رجل يغرق، ويحب الحياة كثيرا حين يموت، ولكن ضد كل التوقعات. لم يعر عرفي أى انتباه لاضطرابه. فارتدى قناعا جامدا ويدأ يتابع المشهد ببرود وكأنه شخص غريب. أربك موقف المدرس «كريم» إلى أقصى حد. فهل ينتقم منه عرفي وهو يتركه هكذا فى خضم هذا الجنون؟ أم كان ينتظر منه أن ينفجر ضاحكا مثلما اعتاد أن يفعل مع كل شيء؟ بالتأكيد، إنه يتحداه، هذا هو الأمر، ولا شيء عداه.

أخيرا. فى نهاية تلك الأبدية. قال عرفي بصوت بالغ المودة خال من الدهشة:

– أخلدى إلى النوم يا أمى.

لم تبد العجوز كأنها سمعته، تمسكت بموقفها.

– هيا ياصغير. أنت تعطلنا؟

فهم كريم فجأة أنه كى يخرج من هذا الفخ، فعليه أن يلعب لعبة، وإلا يخيب أمل العجوز. تذكر نصا وطنيا حماسيا تعلمه فى طفولته. راح يتلوه بصوت أجش وهو يجلو حنجرته مرات عديدة.

راقبته العجوز بعينين زائغتين، كأنها تتمتع بهذا النص. ورغم منظرها كساحرة، فإنها احتفظت بسلوك مدرسة فصل واعية لمهمتها. قالت عندما انتهى كريم:

– رائع. أحييك. لقد تقدمت عن آخر مرة. سأقول لأبيك إنك تستحق النقود التى يصرفها عليك.

انحنى كريم عدة مرات، وكأن ثناء العجوز المجنونة ثقيل جدا على خجله، أحس بخيلاء جامد يسيطر على الموقف. نظر الى عرفي بابتسامة منتصرة، وكأنه يسجل بذلك تحديه وكشف عنه بشكل مبهج.

إنها الحقيقة التى يعاني منها عرفي. فجأة لم ير شيئا ، فاعتقد أن العمى أصابه، تلزمه لحظة كي يفهم سبب هذا العمى المفاجيء. فالتأثر قد ملأ عينيه بالدموع التى تخفى ألما كبيرا. امتلأ زجاج نظارته بالبخار، رفعها ومسحها بمنديله بطريقة محمومة، وقلبه يخفق بشدة. رأى وهو يعيدها إلى مكانها أن بطلي رواية هذا الكابوس المهيب موجودان دائما في مكانهما، ساكنانٌ صامتان، وكأنهما ينتظران منه – ومنه وحده – أن ينهي المشهد. أسرع نحو القمطر، وأحاط كتفيَ أمه بذراعيه، ودفعها فجأة، واصطحبها نحو الباب، تركته المجنونة العجوز يفعل وبدت كأنها نست كل شيء، وهي تمر على مقربة من كريم ولم تنظر إليه، رمش كريم لآخر مرة ، ولم يتحرك إلا بعد أن خرجا من الفصل.

لم يبق وحده طويلا، فقد عاد عرفي بسرعة، وقد بدا متأثرا، قال بصوت جامد:

– أرجو أن تعذرني، فأنا عصبي فعلا.

الآن ابْتَعَدَ الخطر. واستعاد كريم بهجته، رد بصوت لهيج :

– لا عليك. كنت اتسلى، وكنت أستعيد الزمن.

رد عرفي: إنها غلطتي، كان يجب أن أحبسها بالمفتاح في غرفتها. لكن لم تواتني الشجاعة.

قال كريم: لاتفعل شيئا كهذا ، اسمع. هل تعرف أن شيئا رائعا قد حدث لي. لم أكن أجيد حفظ هذا الدرس وأنا صغير. وهذا هو ما طرأ على ذاكرتي، أجد هذا رائعا. ما رأيك؟

لم يود عرفي أن يرد، قال بكل بساطة:

– الا تود أن ترحل؟

(٧)

أحسا بوطأة الحر الشديد عندما عبرا الدور الأرضي إلى الشارع الملتهب، رفع كريم سترته ووضعها على ذراعه، ثم فك أزرار ياقته، ورفع أكمامه، ثم اتخذ هيئة رجل رياضي، لم يتبعه عرفي في الممر، فهناك الكثير من أولياء الأمور في الناحية. مما لايمنعه أن يفعل مثله، مشيا متباعدين، لأن أقل ملامسة يمكن أن تصبح غير محتملة في هذا الجو الخانق، توجها نحو دروب حي الجمرك مخترقين عددا كبيرا من الحارات الخاوية، التي توجد بها محلات قليلة، مفتوحة. ويداخلها التجار. وقد وضع كل منهم منديله على وجهه كي يحمي فمه، وقد تمددوا في فترة القيلولة فوق مقاعدهم، بدا هؤلاء النيام أشبه بجثث هامدة في كل مرة يستدير كريم وهو يرتعد. وعلى مسافة أبعد. هناك أطفال نصف عراة يلعبون في برك المياه. التي تنثرها رشاشات البلدية. راحوا يتقافزون بفرحة وهم يلقون لكريم دعابات حول أمهاتهم، انتزع هذا الحادث التنهدات من الشباب. ووجد أن هذا الجيل الجديد من الأطفال يفتقد المهارة الحقة في السباب. وأرجع هذه الخيبة لحساب النظام الجديد. ولكن الحرارة منعته أن يركز في أفكاره المحزنة. أسرع بالهروب من هذا الفرن. فعجل الخطى وهو يجر عرفي في طريقه.

وبعد عشرين دقيقة من هذه النزهة الهذيانية . هبت نسمة تعلن اقتراب البحر، وراحوا يرون ، عبر فتحات المباني، السفن الراسية على الرصيف، نائمة وساكنة فوق مرساها، توقف كريم أمام مبنى قديم مدهون باللون الأصفر وأخرج مفتاحين من جيبه، وفتح القفل الذي يغلق مصراعي باب ضخم، ثم قال لعرفي:

- ادخل.

ها هو المخزن الذى وصفه خالد عمر بين أيديهم يضم كمية ضخمة من مختلف البضائع. وعددا لايحصى من الحقائب والخزائن المكدسة على الحائط. من الأرض وحتى أعلى السقف. عليهما أن يتخلصا من البضائع كى يخرجا المطبعة ذات الذراع المعدنية التى تلمع فى الظلام. لم تكن الناحية التى تم تنظيفهابكافية الاتساع. وأحس عرفى أن كل هذه الخزائن سوف تسقط على رأسه. تقدم بحذر وقد ثبت عينيه على الكوة الوحيدة المحفوفة بسياج، يسقط عنها ضوء خافت. إنها دليله الوحيد فى هذه العتمة الشديدة القادمة بعد الانفجار الأعمى من ضوء الشارع ، وعندما وصل إلى أسفل الكومة رأى أنهم وضعوا، لخدمتهما، مائدة ومقعدين، وفوق المائدة لاحظ خزانة مليئة بالعديد من المطبوعات. جلس فوق أحد المقاعد. وهو يمسح وجهه بمنديله، وأعجب بالشكل المعدنى، الذى يبدو أشبه بحيوان اسطورى وسط هذا الركام من البضائع.

دار كريم حول المطبعة وقد بدا أشبه بطفل يتسلى. وهو يمسك لعبة معقدة، استدار نحو عرفى، قال بكبرياء شخص أصابه الثراء فجأة:

- إنها رائعة. أليس كذلك؟ إنها تقريبا جديدة ، لقد بدا خالد عمر غنيا، فهو لم يبخل بالنقود.

قال عرفى: اعرف . عليك أن تخبرنى عن الطريقة التى أساعدك بها.

- ستساعدنى حالا على صياغة الملامح العامة. سوف أشرح لك كيف نتصرف، ليست الأمور صعبة، لكن أولا ، يجب أن أضىء النور. فلا أرى شيئا هنا.

وتوجه نحو مفتاح الكهرباء أضاء مصباحين بلا غطاء معلقين فى السقف بحبل، فألقيا ضوءا متدفقا راح ينثر درجة ما من حرارة الخارج. قال كريم وهو يقترب من المائدة. ثم وهو يجلس على المقعد الآخر:

- هيا.

رد عرفى: تحت أمرك.

وصل هيكل في التاسعة مساء بصحبة خالد عمر، كان هناك أكثر من خمسمائة إعلان تصور وجه المحافظ بالزى العسكرى، مكدسة فوق أرض المخزن. كان التاجر يرتدى بدلة خضراء ذات أزرار ورابطة عنق حمراء تعكس تأثيرا مهيبا، فاحت رائحة البنفسج أكثر من ذى قبل. تقدم نحو كريم، وأمسك الشاب بين ذراعيه، وقبله على وجنتيه وهنأه على مهارته، امتلأت دهشته بصدى عميق للصمت الذى سيطر على حى الجمرك فى هذه الساعة من الليل.

– هل فعلت كل هذا ؟ بشرفي، أنت عبقري.

توقف خالد عمر عندما رأى « هيكل » يبدأ في قراءة نسخة من الإعلان بصوت عال ، وهو ينطق كل كلمة بحذر ، وكأنه يتلو صلاة الجنازة ، لم يستطع خالد عمر أن يكبت مشاعره وهو يسمع المديح الموجه للمحافظ ، هز رأسه بطريقة حمقاء ، ووضع يديه على صدره وكأنه يعاني من اعتلال مزاجه ، فى الحقيقة لقد بلغت درجة المكر القاتلة من هذه المهزلة الماكرة مداها ، وراح يهنىء نفسه بأنه واحد من المؤسسين . قال هيكل عندما انتهى من القراءة .

– هذا البورتريه بليغ بما فيه الكفاية. وأنا أنحنى أمام كاتب التعليق. سوف ينتحر صديقنا المحافظ.

ولأول مرة منذ أن دخل المخزن، نظر إلى عرفي.

تلقى عرفي التهنئة بشيء ما من الامتنان، وكأنه قادر على أن يساهم دائما فى متعة هيكل الذى تصوره مذنبا، وفى نفس الوقت أن يخون القضية التى يعمل فى خدمتها، ابتسم كى يبين حساسيته لظهور هيكل، ولكن هذا بدأ يخترق المرارة الماثلة خلف هذه الابتسامة. اكتسى وجهه بتعبير ملىء بالتجهم، بدأ يفكر للحظة، ثم اقترب من ناظر المدرسة.

– أنت تعرف كم أحبك، يا أخي عرفي. ولكنني اعترف لك أن فيك شيئا ما يقلقني. هل أنت مريض؟ كم سأكون أسفا .

أحس بكل وضوح، أن عرفي متأثر ومرتبك، لكنه سرعان ما تماسك. وفهم أن هيكل يبدي تلميحا وهو يستعلم عن صحته، وأنه بشكل غير مباشر، يسأله عن

أخبار أمه، هذه الأم التي أصبحت سببا لعذابه، لا. لم يستطع هيكل أن يتعرف حقيقة نواياه. فهو يراها دائما واضحة. في كل مرة يأتي إلى بيته. لا يفوته أن يزوره في حجرة العجوز، قيل إنه لا يأتي إلا من أجلها. إنه يكتسي دائما بهذا الشكل المهيب الذي يتخذه خلال هذه اللحظة، لكنه يتصرف نحو المجنونة بأدب جم. ويتكلم كسيد مهذب، إنه شيء غريب فالمجنونة تتصرف بغرور وتبدو متأنقة وتتناديه بالأمير، إنه أمر غريب لايستطيع عرفي أن يدرك آليته ويتذكره بخوف غريب، انتهى بأن تساءل إذا كانت عاطفة هيكل تسير في مجراها الطبيعي. وهل هو نفسه مجنونا؟. أجاب.

– أنا على مايرام.

تأمله هيكل ومع ذلك تبدو بالغ التعب.

– لقد عملت كثيرا. أنت تعرف أنني أدير المدرسة وحدي.

– أفهم. ولكن لماذا هذه المرارة ؟ ياعزيزي عرفي أنت تعرف شعوري نحوك. ولا أحب أن تكون بيننا أقل شائبة من الغموض.

– أين ترى المرارة؟

– سلوكك ليس هو نفسه، فأنت تعطيني الإحساس أنك لست على مايرام. هل تجد نفسك متوافقا مع مشاريعنا؟

قال عرفي وقد بدا عليه كأنه تلميذ يشوبه الفتور: أنا أشاركك أفكارك تماما ، لو كانت المرارة تبدو عليّ فإنها لا تتعلق بمشاريعنا، بل بأمر شخصي.

– إذن اسمعني. هذه الإعلانات التي ستعلق فوق جدران المدينة سوف تثير الدهشة. وسوف يتساءل رجال النظام عما إذا كانت هذه الإعلانات ليست من عمل المحافظ. سيكون هناك خلط مرعب. سوف نملأ اركان المدينة بهذه الإعلانات. ثم نطبع المزيد. ويدءا من الآن، نحن مكلفون لعبادة المحافظ. وسيبدو هذا في حديثنا الى الناس. هل يمكن أن أعتمد عليك؟

لم يكن أمام عرفي وقت للرد. لأنه سمع فجأة ضحكة حادة انطلقت من خالد عمر، الجالس فوق مقعده. لقد سمع هذا كريم وهو يعيد عليه قراءة نص الإعلان. لم يتمالك التاجر نفسه وهو يسمع هذا التقريظ، وراح يكرره في كل لحظة

لصديقه الذى بدا سعيدا بإرضائه. نظر عرفى إلى كريم وتذكر مشهد المدرسة بين الشاب وأمه، وأحس بالخزى، فهل سيحكي كريم عن هذا لهيكل؟ بلا أدنى شك سوف يتصرف كمنتصر. أحس عرفى بالبرودة فى قلبه. إنه لايكن أى مرارة ضد السيد هيكل، وإعجابه به يمكن أن يجعله يضحي بحياته لمثل هذا الرجل. هيكل كما هو دائما، بسلوكه وأساليبه الراقية. لم تزعزع أى مأساة شخصية برودة الشديد، رمقه عرفي في تناقضه الرائع المؤسي. أحس أنه وحده على وشك أن يتعلق بطرف هذا العالم الهزلى المبهج. حيث تساءل هيكل، وماذا لو أن هذا الخيط تمزق؟ سأل هيكل موجها كلامه إلى كريم:

– هل استعددت لهذه الليلة؟

رد كريم: نعم، كل الاستعداد. لقد واعدت بعض الزملاء الذين عليهم الانضمام إلينا. سنشكل مجموعات عديدة وسنتقاسم أحياء المدينة.

– حسن إنت رائع.

– أفكر فى الإعلانات التى ألصقتها منذ بضع سنوات والتى كانت تتكلم عن الحكومة بشكل سىء.

– هذه المرة ستتكلم عن حسناتها. تغير الأمر قليلا.

اقترح خالد عمر: سوف أصحبك .. أرغب فى لصق واحد على الأقل.

قال هيكل: من الأفضل لا..

لم يقل لماذا، ولكنه فكر فى أن الضجة والضحك المنطلقين من خالد عمر تجذب الانتباه حوله،. قال التاجر متكدرا

– أمتثل لأوامرك.

ابتسم هيكل له، وقال: معذرة، لأننى مضطر للانصراف.

توجه نحو كومة من الإعلانات المكدسة فوق الأرض، وأمسك واحدة، وراح يتأملها طويلا. ثم ثناها، ودسها فى جيب سترته، وقال وقد اكتسى بالغموض:

– ربما أحتاج إليها هذا المساء ،السلام عليكم.

وخرج من المخـــزن وسار فى الشوارع الخاوية. وهو يتنســـم رائحة البحر الحية.

(٨)

اختلطت رائحة البحر بالعطر الذى تضعه سعاد على جسدها النحيف ذى التكوين البالغ الأنوثة. كانت تتأرجح فوق الرمل، وهى تتسلى بتأمل النجوم من زاوية لا يمكن لأحد أن يراها، انها موجودة على البلاج، عند طرف منتزه الكازينو الخاوى. فى منطقة معتمة بعيدة عن الأضواء، معدة للرقص فى وسط الهواء. وصلت موسيقي الرقص اليها وقد تخلصت من إيقاعها الخافت آخذة شكلا شبحيا، وواقعيا فى الركن المهجور من البلاج. تأهبت للحظة. الوجه تكسوه ملامح طفولية. جمعت حفنة من الرمل وجعلتها تنساب ببطء فوق أسفل بطنها. وهى تحس بسعادة غريزية وتشعر بهذا الثقل الذى يرزح فوقها ثانية بثانية. وقد تاقت لبعض المداعبات التى سبق أن جربتها مرات عديدة. تأوهت، كى تصل الى ذروة الشهوة ، وهى تتعلق بالمتعة التي انغمست فيها، فجأة توقفت. ألقت كمية من الرمال بين ساقيها ثم راحت تلطخ ردائها واستدارت نحو أضواء الرقص.

كان هذا هو العالم الغريب والهزلي الذى دخلت فيه بهذه النزهة الخاوية، عالم بعيد تماما ، أحست أنه موجود على مسافة آلاف الكيلومترات، نظرت الى نجم آخر، والى صالة الرقص وسط ديكور من النباتات الخضراء، ومصبات مياه وأشجار نخيل قزمة، الراقصون يتحركون كأنهم عرائس يحركهم رجل مجنون. راقبت الجالس الى جوار المحافظ فى مقصورة منفصلة عن بقية الحاضرين، كان المحافظ يخطب أمام أبيها ورجلين آخرين لاتعرفهما، ليس عليهما سوى أن يهزا رأسيهما علامة على الموافقة. هناك مغنية مشهورة فى البلد،متقدمة فى العمر. يقال أنها عشيقة المحافظ منذ أشهر. انها امرأة مسنة ضخمة. تبدو

كمومياء فرعونية، تسمى أم خلدون، فلا شك أن وجودها مع بعض نبلاء المدينة يمنعهم من السقوط في دائرة النسيان، أن يكون المرء عاشقا لمغنية شهيرة يعنى استعراضا لقدراته، فهم يزعمون انها تساوى الكثير لهؤلاء الأثرياء الجدد.

فى كل مرة تراها سعاد تتساءل كيف يمكن لرجل شديد الفظاظة، شديد التعلق بالجمال أن يمارس الحب مع هذا المخلوق المجعد ذى اللحم الرخو والشديد الغرور؟ لقد كانت المطربة عشيقة لأبيها بعض الوقت، وتحتفظ الفتاة لهذه الفترة ببعض الذكريات المؤلمة، فإن حقدها على أبيها قد صاحبه احتقار غير محتمل، فلم تسمح له أن يقترب منها، ولا أن يلمسها، بدا لها وكأنه مصاب بمرض معد، وأنه يفوح برائحة العجوز، الأقرب لرائحة العفانة. وبعد أن قطع أبوها صلته بالمغنية، لم تعد تحتمل رؤيته إلا نافرة.

كان أبوها من النوع الذى يمثل البرجوازية الشرهة النهمة التى تسيطر على المدينة، وكأنها عصابة متعفنة من أبناء آوى. لم يصادق إلا أناس على طرازه، ولكن كل الناس حقراء، حتى المحافظ. فإنه يمثل تميزا بوقاحته وخيلائه، وطوال سنوات بدت سعاد ذليلة، راح أبوها يمارس شتائمه عليها كأنه جلاد. لا شىء يقاوم أحكامه القاطعة، وانفجارات غضبه العالى. بصفة عامة فهذه الانفجارات بدت واضحة خلال حفلات الاستقبال التى يقيمها فى فيلته الفخمة. والواسعة كأنها قصر. والتى تعج بخدم عديدين، بدا فى استقبال ضيوفه كشخص يتحمل الإهانات ويسمح لنفسه أن ينتقم فى الوقت المناسب ثم يعود إلى ضيوفه الذين يصيبهم الخجل من سلوكهم، يدير الاحاديث المتعلقة بالأعمال السياسية، لا يجرؤ أحد أن يعارضه، حيث أن حدة ردوده سريعة، وطريقته فى إدارة الحديث وهو يوجه السباب لمحدثيه تجعل من منزله أغلى الأمكنة فى مجتمع المدينة. فكل واحد يأتى لرؤية كيف يهان الآخرون، ومع ذلك كان يعامل ابنته بقدر من الاحترام، يكاد يقارب الخوف، كانت تخيفه قليلا بمزاجها الثورى، فهى تبدو متمردة. كل ما كان يطلبه منها هو ألا تثير له أى فضيحة. كان يخاف أن يراها وقد أصبحت يوما «حاملاً»، يبدو كأنه يخشى هذا الاحتمال مثل أكثر النكبات المشئومة. كانت سعاد تعرف أنه قلق من هذا الموضوع. تقرأ الإضطراب فى عينيه كل يوم عندما تنظر

الى بطنها . كأنه ينتظر أن تنفجر الفضيحة. لكنه ذات مرة ادرك هذا الامر فلم يود أن يعرف شيئا وكان عليه ألا يجهل كل شيء عنها .

انعكس خيال هيكل على الأضواء الراقصة، ونظرت اليه يتقدم نحو المتنزه طويلا ورقيقا، رائع مثل شبح غامض قادم من العدم، قامت بغتة، لكنها لم تجر نحوه، انتظرت بلا جدوى أن ترتمى بين ذراعيه، راحت تستند عليه وهى تقفز وتطلق تنهيدة عميقة كطفل حصل على لعبة غريبة الشكل ولا يمكن أن يؤمن بحظه، راح هيكل يتحمل مداعباتها الرقيقة، هذه العاشقة الصغيرة المهووسة. كان حساسا لهذا الافتتان ولهذا التدفق من الكلمات غير المفهومة، أشبه بتمتمات غريق عاد الى الحياة. لم تكف الفتاة عن تقبيله، والاحتكاك به وهى تتقل بكل حدة على جسده، راغبة أن تجره معها فوق الرمل. ولكن «هيكل» تحرر من عناقها وأبعدها برقة، وقال:

– هيا ياصغيرتى، ليس هذا وقته.

تأوهت: أنت قاس معى.

اكتسى وجهها بتعبير مرتبك. وكأنها على وشك البكاء. ملامح فتاة صغيرة محبطة، ضحية لظلم الكبار. بطريقة تلعب فيها دور البائسة الباحثة عن الحنان، لم تكن تعرف مطلقا فى أى لحظة أحبته. إنه دائما ساكن، حتى فى مشاعره الاكثر جموحا. يتعامل بنفس هذه الابتسامة الماكرة فوق شفتيه، وهذه النظرة المتكبرة، إنها ليست بعيدة عنه، ولكن على العكس، فإنها مليئة بالجرأة، والتحدى، رددت وهى تسلم صدرها لأصابعه الجامدة –

– أجل. أنت قاس معى.

وراح هيكل يبتسم.

قال وهو يمسكها بذراعه ويمشى بها بطول الشاطىء:

– هيا . لنوقف هذه الملهاة.

فى الحقيقة، فإنه لم يرغب فى ممارسة الحب معها فوق الرمل حتى لا يتلف ملابسه. فهو فى حاجة لان يظهر لتوه فى صالة القمار كى يقوم بمهمته. لم يود أن يراه أحد بزى غير مهندم، لكن من ناحية أخرى فهو الآن مهووس بشىء آخر غير

الرغبة الشهوانية، إنها الخطة الجهنمية المدبرة ضد المحافظ، وردود الفعل التى سيحدثها تعليق الاعلانات فوق جدران المدينة.

توقفا قريبا من حاجز يؤدى الى أوتاد خشبية تفصل الشاطىء الخاص عن الكازينو. جلست سعاد فوق الحبل المشدود وراحت تتأرجح، وبقى هيكل واقفا ينظر اليها، ثم اتخذ مكانا الى جوار الفتاة التى راحت تطال قامته. فى هذا الركن كانت الظلمات أشد عتمة، وكان الضوء الوحيد قادما من ناحية البحر الذى تنعكس عليه أشعة النجوم. أما الموسيقى الراقصة فقد خلفت صمتا شديدا وغرقت مبانى الكازينو المضيئة فى نوع من البعاد، أحس هيكل أنه الحى الوحيد فى عالم من العدم. تملكته فجأة مشاعر غريبة من القوة، فضم سعاد اليه، وكأنه يجرب قوته فى الدفاع عن نفسه ضد الموت بشكل ميئوس منه.

فجأة دفعها، وسألها:

– هل أبوك هناك؟

– نعم إنه فى صحبة المحافظ. كيف تسير الأمور هذا المساء؟

– حسن جدا. فالاعلانات ستكون فوق جدران المدينة صباح الغد وستكون صورة وجه المحافظ ذات ملامح خاصة، ستكون أشد فتكا من النص المكتوب معها، حاولى أن تقارنى.

قالت، وقد علتها تكشيرة حزينة:

– أنت لاترانى إلا من أجل هذا. فلست لك سوى جاسوسة للمعلومات. وأنت لست سوى مجرم فاسق.

حقا. فسعاد تخدمه من أجل التجسس على المحافظ طوال لقاءات عديدة عقدها هذا مع ابيها. فالمحافظ يعتبرها فتاة صغيرة ولايهتم قط فى البوح، أثناء وجودها، بالأسرار البالغة الأهمية. لدرجة أنه قد جاء وقت أثارت أحاديث الرجلين تثاؤب الفتاة، فتعبت من سماعهما وهما يتناقشان حول كل الموضوعات الجادة التى تتعلق بأمور المدينة. ولكن منذ أن تعرفت على هيكل راحت تنتابها غريزة

فضول لكل مايتعلق بالمحافظ. فتركت نفسها تنساب فى كل مرة تروح تبلغ الشاب ببعض التفصيلات حول مشاريع المحافظ وخططه.

قامت. ووقفت أمامه. وسألت فى توسل:

– هل تحبنى؟

بدا السؤال التافه فى فم الصغيرة ذا معنى حاد، فقد عبس هيكل، ورفض أن يتركها تنغمس فى هذا المستنقع الشجى بالحب. فكل مايشعر به نحوها ليس له أى علاقة بهذا الشعور الجارف الذى يبدو أنها تكنه له. فهى تحس نحوه بعاطفة تبدو كأنها من مفاجآت الروتين. ولكن كيف تفسر له كافة التناقضات؟ انها واعية لذلك تماما، وسيكون من الحقاوة بالنسبة له أن يخدعها، لأنها إمرأة ولايمكن أن يجعلها تتجاهل طبيعتها. أجاب بابتسامة مريرة ليس بسبب كذباته ولكن بسبب الندم الذى عليه أن يجربه لو افتقدها ذات يوم:

– طبعا . أحبك.

صاحت هاتفة:

– ترى أى رجل أحببته ، رجل مثلك يمكن فقط أن يجعلنى أشعر بوجودى هذا الامر يبدو لى كأنه معجزة.

وقفزت فوق الرمل. مشدوهة وسعيدة، جذبها هيكل وجعلها تجلس قريبة منه فوق الحبل، ثم وضع يده على عنق الفتاة، وقال:

– اسمعى. عندى مهمة لك. ففى المرة القادمة التى ستأتين فيها لمقابلتى احضرى آلة كاتبة. سوف أمليك رسالة.

– ماذا ستعد لى. ملهاة جديدة؟

– حسن ، عندى النية أن أرسل لكل الصحف خطابا دوريا، أسألهم فيها أن يفتحوا باب الاشتراك لإقامة تمثال للمحافظ.

ضربت سعاد بيديها عندما نطق اقتراحه ، أرادت أن تقوم، ولكن «هيكل» أمسكها وأجبرها أن تظل هادئة، وردد:

– انتظرى، ليس هذا كل شيء، هل تعرفين من سيوقع هذا الخطاب؟ سوف يحمل توقيع أبيك لمعظم الأصدقاء للمحافظ..

– أنت شيطان، آه، كم أحبك.

تعلقت على رقبته وغطت وجهه بقبلات سريعة.

– يلزمنى توقيع أبيك كي يمكن أن أقلده، هل يمكن أن تدبرى لى هذا؟

– هذا أمر بالغ البساطة، سأطلب منه أن يحرر لى شيكا. فهذه ليست أول مرة، فهو يفعل ذلك دائما عندما يعطينى النقود.

هتف هيكل: رائع، كم أنا فخور بك، سوف تطلبين منه شيكا على بياض وسوف استخدمه كى أرسله فى أحد خطاباتى، سأختار الصحيفة الأكثر انتشارا فى المدينة، وسيجعل الشيك الأمر مضمونا أكثر. فالصحف الأخرى لن تثير أية فضائح، سوف ينشرون الخطاب دون مجاملة،.

اهتزت سعاد فجأة فى ضحك حاد يملؤه المكر، ضحكة امرأة تعد لانتقامها.

– آه .. الغبى لو كان يعرف.

سأل هيكل : من؟

– أبى، هل تعتقد أنه سوف ينتحر؟ آه، كم أتمنى ذلك، كم أتمنى ذلك !!

أجاب هيكل: موقفك الشخصى لايهمنى، ويجب أن تفهمى ذلك.

وانخرط فى ضحك الفتاة حقد حقيقى، لأنه أدخل كل الفساد الذى يفصله عنها. فالنساء يصبن بالحب لدرجة الهذيان، وعند الكراهية يمتزج العنف بالغباء، كأن الحقد شعور مفتقد تماما، فازدراؤه العميق للبشرية يمنعه أن يعطى أى أهمية لأحد من المهرجين الذين يقومون ببطولة المسرحية. فى هذا العالم المزين بواقعهم، نظر الى وجه الفتاة الجامد الذى يبدو كأنه ينتظر منه كلمة أو مداعبة كى يبتهج، لكنه ظل صامتا. استولت عليه ذكرى وجه آخر، وجه ملىء بالصفاء، يمكن لكل حقد أن يندثر تماما أمامه، كل الرقة المتجمعة والمتدفقة فى هذا الوجه المجنون العجوز، أم عرفى، وجنونها الذى يجعله غريبا، انها تحلق فى أعلى هذا العالم

الخارجي. بنقاء خفي، لا تلطخه كراهية. هو الذي ليس بيده شيء ، إنه يغير من عرفي لأن لديه هذه الأم المجنونة. هذا الكيان الهارب في حضيض الأحياء الشعبية، ناظر المدرسة الذي يملك الشيء الوحيد الذي يمكن إثارته ومس شغافه. إنه شيء ثمين للغاية. يضطره أن يسمح لعرفي بمشاركته التغيير، لديه اليقين أن صديقه لن يقدر على فهم معنى هذا الإجلال الفريد. لقد كان يعرف أن عرفي يؤنبه في داخله. لأنه يحبس نفسه دائما مع المجنونة العجوز في غرفتها، انه يشك بأن لديه أفكارا موسوسة تجاه أمه. كيف يمكنه أن يشك أن هذه هي اللحظات الوحيدة التي يمكن لهيكل أن يجرب شعورا مؤكدا. أصبح من المعجز الشعور بالامتنان. والرقه، إنه قادر على التضحية بلا حدود أمام هذه العجوز المجنونة. هذا الحطام الإنساني. أحس بالصمم في داخله. دموع الرقة والحب، لكنه يفضل أن يثير شكوك عرفي المرعبة. بدلا من أن يعبر له عن الرقة المتناهية لهذه اللحظات التي يتأمل فيها وجه أمه الحنون. هذا الموقف المبهم يثير شجنه لدرجة تجعله يهرب من زيارة العجوز المجنونة. يكفيه الآن أن يتذكر ملامحها، ونظراتها الطفولية الشهيرة، كي يصل الى أنين النفس الذي يسبب سعادته.

أحست سعاد بغريزتها أن في صمت هيكل نذيراً سيئاً. اهتزت على الحبل، وتململت، وتنهدت بقلق وهي تراه عائدا اليها. تأتي الموسيقى من بعيد، خفيفة، وصافية في الليل. انتهت بأن قالت:

– هيا نذهب لنرقص، فأبي مشغول جدا مع المحافظ. ولن يلاحظ شيئا. فأنا لم أرقص معك منذ فترة طويلة.

قال هيكل: لا، مستحيل، الحقي بأبيك. فسوف أتوجه الى صالة اللعب.

– هل سأقابلك فيما بعد؟

– سأجيء لحفلة الرقص. لكنني لن أبقى طويلا. فلديّ ما أعمله هذا المساء.

قالت وهي تمط شفتيها وتطلق تكشيرة مأساوية: أعرف ماسوف تفعل.

قال هيكل ضاحكا: لاتكوني غيورة.

- لست غيورة الآن، ولكن أحذرك أنني سأصبح هكذا عندما أكبر.

قال هيكل مداعبا. لكنك الآن كبيرة فأنت فى السابعة عشرة تقريبا.

- أيها القذر

كادت أن تجهش، ولكن هيكل تأهب للذهاب، وقفت سعاد فجأة وتعلقت به. وهى تحاول أن تخربشه، وأن تقبله في نفس الوقت، وبكثير من البراءة، وبكثير من الوعود الماكرة، تمكن من التخلص من الفتاة. ثم عبر المتنزه وعرج نحو اليسار فى اتجاه المبنى المخصص لصالة الألعاب.

كان مبنى من الرمر، مزين بالموزاييك، أشبه فى هندسته المعمارية الثرية بمقبرة هندية، دخل هيكل الصالة بخطوات سريعة ومرحة، كمقامر يود ألا يتأخر عن قدره، التزم بصمت مهيب، ملىء بالمعاناة. ألقى مسئول اللعب البلى فى طبق الروليت. كان دوران البلى يبدو أشبه بابتسامة خبيثة، سادت الصالة تماما، فى هذا الجو الحار، كانت الحرارة ملتهبة فلا أى نسمة تهب من الفتحات الواسعة التى تطل على البحر. دقق هيكل فى مجموعات المقامرين المتلاصقين حول المائدة الطويلة، ولكن أحداً لم يستدر فى مكانه، كانوا منهمكين تماما فى اللعب لدرجة أنه لايمكن لزلزال أن ينزعهم من التأمل فى الروليت، ظل دوران البلى مسموعا حتى عندما بلغ أطراف الصالة، الى جوار البار الضخم، حيث يوجد ممر يؤدى الى دورات المياه، كان المكان خاويا. مد هيكل أذنه نحو الممر كي يتأكد أن أحدا لايتبعه، لم يسمع أى ضجة، ولكن فقط حركة صماء تأتى من بعيد، بلا شك فالبلى بدأت تستقر، تحرك اللاعبون من معاناتهم. حانت اللحظة التى بدت له ملائمة كى يبدأ العمل. وبسرعة أخرج الإعلان من جيبه وبواسطة أنبوبة لصق راح يلصقها على الحائط ، بالضبط أعلى صف المبولات. بدا وجه المحافظ كأنه هو يرقب فتحات سراويل زبائن الكازينو. انه أمر يثير السخرية حقا. تراجع هيكل وهو معجب بعمله، ثم غمرته فرحة ماكرة، هنا سمع خطوات فى الممر. قد يتعقد الأمر. اذا رآه شخص الآن، سوف يبدو كشخص مشبوه، أو يتصرف كأنه لايعرف، لن يهرب من نقاش يخاطر أن يتلافاه، أمسك مفتاح الكهرباء بيده. حركه، وأغرق دورة المياه فى ظلام، ثم انسل من الناحية الخلفية وهو يدفع الباب، اقتربت الخطوات الثقيلة

الخرقاء، دخل رجل المرحاض، وفي الضوء القادم من الممر، رأى هيكل رجلا ضخما يكاد يترنح، يتجه يمينه نحو المبولة، إنه رجل متقدم في السن، شديد البدانة، بدا للوهلة الأولى وكأن هيكل لايعرفه، أطلق تنهيدة وبدا ثملا. تماسك هيكل، واستعاد أنفاسه، فهو لايجرؤ أن يتحرك، انتظر أن ينشغل الرجل في التبول لكي يأخذ فرصته في الهروب، فالرجل الآن يدير له ظهره، وقد باعد بين ساقيه، انعكس ظله الثقيل على الخزف الأبيض، زفر وهو يحاول فتح أزرار سرواله، كان ثملا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لم يلحظ انطفاء النور، وراح هيكل يهنىء نفسه عندما أخذ الرجل فجأة يطلق سبابا بذيئاً ضد إدارة الكازينو. رغم سكرته، مال بكل خفة نحو مفتاح النور، وبعد برهة عاد الضوء، ولكن قبل أن يستطيع هيكل إصدار أى حركة، رأى الرجل وجه المحافظ على الحائط. انتابه ذعر اللحظة. ثم أطلق صرخة ضاحكة ساخرة، خنقت حنجرته وانهار وهو يهز يديه فوق رأسه وكأنه سيطلب النجدة من كل الدنيا، انتفض هيكل، وهو يفاجيء بما حدث، اقترب ببطء من الرجل الممدد فوق الأرض وقد انفتح السروال، بدت كل هذه الكتلة الضخمة المتمددة كأنها الجثة. لقد مات. جحظت عيناه وهما تتأملان وجه المحافظ في إلحاح باد، وبدا لهيكل أن للرجلين مظهراً ساخراً بطريقة غريبة. ترك المكان وقد فهم تماما سبب هذه الخصومة اللدودة والغامضة بين الرجل والمحافظ.

كان الصوت الذي ملأ صالة القمار قد جعل «هيكل» يصدق أن نبأ وفاة المجهول ذاع بين اللاعبين. ولكنه سرعان ما أدرك خطأه. فقد كسب واحدا من اللاعبين مبلغا كبيرا. وكان هذا حدثا سعيدا بالمصادفة أثار هياجا عاما. انتهز هيكل هذا الهياج، لم ينتبه أحد إليه وهو يعبر الصالة ويخرج الى المنتزه .. وعندما وصل الى صالة الرقص، اتخذ مائدة خاوية قريبة من نخلة صغيرة وجلس ينتظر الأحداث.

بلا شك، فالرجل أصابته نوبة قلبية مفاجأة عندما شاهد صورة المحافظ. لم يكن هذا الموت مدرجا في البرنامج. لكن «هيكل» راح يعزى نفسه، فحسب رأيه فإن هذا الحادث نتاج لقدرية تعرف أحيانا كيف تبدو مثيرة للسخف. وهكذا، فإن أول شخص رأى الاعلان سرعان ما سقط ميتا. «آمل لايتبعه الآخرون في الدرب.

فسوف يسبب هذا مجزرة». هكذا فكر هيكل، فليس هذا هو مايرغبه، ظل منتبها لأقل بادرة، راح يتأمل بكل حدة تعاطف هذا الجمهور البرجوازى المغرور المختال بسماته غير المحتملة. حقا الكازينو هو المكان الأمثل لهم، فإليه يأتى علية القوم وأثرياء المدينة. هنا حيث يحتمل الغباء الغريب لهذا الحشد، مما يجعله يؤمن بخيالهم المريض. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة. كل هؤلاء الناس أصابتهم بشاعة غير محتملة، نوع من القبح اللامتناهى، يسمح ببصيص من الضوء لأفكار غير معقولة. إنهم لايميلون الى التسلية. جامدون فى أدوارهم، يعيشون نفس الملهاة المريرة التى تدور فى مجهول. فالبشرية بشعة، وقد اقتنع هيكل بذلك منذ أمد طويل وهو عند هذا الحد يعتبرها شكلا من أشكال الاستفزاز.

أدار عينيه نحو مقصورة المحافظ. وكأنه يدير رأسه نحو شيء مبهج. رأى سعاد فى مقصورة أبيها والمحافظ، أما الآخرون الذين كانوا معهم فقد اختفوا حتى عشيقة المحافظ. المطربة التى لعلها توجهت الى عملها فى ملهى ليلى، كانت الفتاة تجلس فوق مسند المقعد الذى يشغله المحافظ وتبدو كأنها تتوسل إليه أن يمنحها رضاه. إنها تستخدم كل سحر أنوثتها المبكرة، فانحنت نحوه، وراحت تدلك له ظهره بيد رقيقة كأنها اعتادت على ذلك كى تمنحه فرصة، بدا المحافظ مسلوب الارادة بشكل مرعب، يدافع عن نفسه كشيطان ضد محاولات إغواء الصبية، لم يفهم هيكل أن سعاد تحاول أن تنال منه. أثاره هذا. ثم تابعت عملها للحظة بدافع التسلية.

كان المحافظ ينتمى الى هذه الطبقة من الشخصيات العامة الذين ليس لديهم أى شيء يفعلونه. فخيالهم محفوف بالعمل الذى تنجزه الطبيعة. إنه قصير القامة، مكرش، الساقان ملتويان. الأنف أفطس، العينان كبيرتان مستديرتان جاحظتان، تبدوان كأنهما تنويان الخروج من محجريهما،. وعندما ينظر إلى محدثه. فإن هذا الأخير يحس أنه كبر الاف المرات ، لان هذه الاشياء المتوحشة البارزة، الجاثمة فوقه تبدو كأنها ميكروبات معدية. فى الحقيقة فإن المحافظ يحاول

أن يبدو يقظا فى مدينة يرغب كل سكانها فى النوم. لا يمكن أن نقول أنه يرى كل مايمر من حوله. وأنه يتصرف كنسر، كان عليه أن يكسو وجهه بالنظرة المعروفة عن «ملك الجو»، إنه أحد أصدقاء الوزير فى السلاح، الذى عينه فى وظيفة المحافظ. كانت تلك فرصة كى ينتقم لكل سنوات الخمول. فراح يحكم المدينة وكأنها خزانة مجندين. ففى كل يوم يتخيل ممنوعات جديدة تمس الشعب الفقير. يقال أنه جرب كافة المخاطر.. الشيء الوحيد الذى لم يجرؤ أن يلمسه هو تحريم لعبة الطاولة فى المقاهى. يقال إنه يفكر فى ذلك جديًا، ولكن حاشيته حاولت أن تثنيه عن عزمه، وأكدت له أن منع لعب الطاولة سيثير حالة من ردود الأفعال ويستوجب موافقة من الحكومة بالعاصمة.

الآن، وقفت سعاد قريبة من مقعد المحافظ وسحبته من كمه، أشارت له الى حلقة الرقص، سرعان ما ادرك هيكل سبب توسلاتها، فالفتاة توسلت للمحافظ أن يرقص معها. ولكن المحافظ رفض تماما، حاول أن يتخلص من ذراعها. لمع فى وجهه القزم رعب ساخر، أدرك هيكل أن سعاد تفعل كل ما بوسعها كى تقدم له عرضا رائعا. وفى لحظة نظرت تجاهه. وابتسامتها اللئيمة على شفتيها. كأنها تحاول أن تلفت نظره أنها تهب نفسها لفتنتها. كان على هيكل أن يسمح لها بمراقصة المحافظ. أعطت ابتسامته للفتاة بادرة تشجيع. ثم راح ينظر الى الجمهور.

خلال بضع دقائق، كان الجو قد تغير تماما، لوحظ أن هناك حركة غير ملموسة من العصبية بين الاشخاص. كان الندلاء وموظفو الفندق يروحون ويجيئون بحركات مليئة بالتوتر قام العديد من الزبائن، وبسرعة اتجهوا نحو صالة اللعب. أحس هيكل من حوله ببوادر توتر خفية. وكأن هناك ريح غضب غامضة. راح الأشخاص الذين كانوا يتكلمون بصوت عالٍ يتهامسون بينما انخرس البعض الآخر تماما، استمر الاوركسترا في عزفه الذى يصم الآذان، وفجأة تراجع إيقاع الموسيقيين الذين يفترض أنهم قد أدركوا الكارثة القادمة من البحر، أحس هيكل أن الأمر تم إكتشافه جثة المجهول الميت فى دورة المياه. انتابه وخز خفيف فى قلبه لما سوف يحدث.

– سلام عليك ياهيكل.

كان للشاب الذي يقف أمامه جمال الغزال البرى، وجهه الرقيق يقف فوق رقبة طويلة كشفت استدارة وملاحة ملامحه الدقيقة. كانت له عينان سوداوان واسعتان، ورموش مخملية تترك حولها تأثيرا رائعا، وجذابا للنساء المتقدمات في السن وصاحبات الثروات. اسمه رياض، ومن طموحاته أن يحظى بصداقة هيكل، فهو معجب به بلا حدود، حاول أن يثير انتباهه عندما وجد نفسه مع مخاطبه في الممر. لم يود هيكل صحبته قط، وراح يباعد المسافة بينهما ولكن المصلحة التي تربط بين سكان المدينة، تجعله مضطرا الى وساطة رياض، إنه يحمل في قلبه كل أنواع الخنازير والنوادر السخيفة التي تنطلق حول الحكومة العليا. كان رياض يعرض بلا حياء علاقاته معتقدا أن هيكل ينبهر بالتسهيلات التي تتم في الأوساط الأكثر رقيا. لم تنتابه قط فكرة أن هيكل يتقيأ من هؤلاء الرعاع ولايهتم سوى بإرضاء مزاجه السادي. قال وهو يجلس حول مائدة هيكل:

– هل عرفت الخبر؟

– لا . ولكن أمل أن تخبرني.

أخذ رياض وقتا. تضاربت رموشه، واستدارت رقبته وكأنه يحب أن يفعل ذلك من أجل إغراء محدثه، ادرك أن عليه أن يسرع، ففي ظل هذه الظروف هناك مخاطرة. علم هيكل بوقائع الخبر المشئوم دقيقة بدقيقة. وهكذا حصل على المعلومات بلا مقابل. كان من الصعب عليه أن يتكتم الأمر. مما مكنه من تحول خفيف في اللهجة:

– حسنا، إذن فالمحافظ سيكون مسرورا.

سأل هيكل: لماذا؟ ألم ينل بعد مايستحقه؟

علق رياض أخيرا. لقد مات عدوه اللدود أنت تعرفه بالتأكيد، انه عبد الحليم مكرم، رجل الصناعة الثرى، لقد وقع بكل ثقله في دورة مياه صالة القمار.

قال هيكل: لقد نال مايستحق، يا له من غبى. كيف يمكن أن يكون عدوا

للمحافظ وهو الرجل الثرى.

- ألست فى الدنيا؟ فالمحافظ خطف منه عشيقته منذ بضعة أشهر. إنها المغنية العجوز أم خلدون. فالمحافظ مرتبط بها فى هذه الايام.

- ولكن الناس كلها يزعمون أن عبد الحليم فاقد الرجولة.

- لا يهم. كان لايدرى أن الناس تعرف ذلك، بل على العكس كان واثقا أن المحافظ قد سلب المغنية منه، إنها امرأة غير جميلة. ومع هذا كان ينتقده بشدة . هؤلاء العواجيز مزعجون فيما يتعلق برجولتهم.

وبينما هو يتحدث مع الشاب، لم يكف هيكل عن النظر الى مقصورة المحافظ. لقد اقتربت اللحظة التى لم يعد فيها موت عبد الحليم سرا لأحد ويهمه أن يعرف كيف سيتصرف المحافظ عندما يعرف الخبر. كانت سعاد قد تخلت عن مشروعها الرائع مع المحافظ. جلست هادئة علي مقربة من أبيها. وقد اكتست بتكشيرة لاحظها الرجلان اللذان انهمكا فى نقاش فظ. بدا وجه المحافظ الحزين مكتسيا بتوعك عميق، بسبب كرامته المجروحة. راح محدثه يتتبعه. يجب أن يسقيه من روح السخرية. راح يبرم شاربه ويرفع يده وكأنه يتحكم فيمن حوله بهذا الفيضان من الفصاحة المهينة. رأى هيكل سعاد كأنها تنبح. وقد بدا عليها الملل جهارا. وفى مقصورتها المنفصلة عن الجمهور. بدوا وحدهما كأنهما لم يصابا بأى قلق. قال هيكل:

- الرجولة. لم يشك عبد الحليم المسكين قط أنه فقد رجولته. بل أنه افسد طعمه المالسخ مع امرأة عجوز. فعندما يكون المرء عاشقا لامرأة عجوز مشهورة .. ذلك أفضل من أن ينام مع فتاة مغمورة لايتكلم عنها أحد. ولكن ماذا يرضى رغبته كرجل؟، اليس ذلك بسبب ثرائه ؟. لقد خشى أن يتهموه بالبخل. فى الحقيقة لم يكن يبحث سوى عن إثارة دهشة من حوله.

قال رياض: لقد فسرت حالته جيدا. ولكن ليس هذا كل شيء. هل تدرى أنهم اكتشفوا إعلانا معلقا على المبولة عليه وجه المحافظ مصحوبا بكلام حماسى عن انجازاته. ألا تجد أن هذه مصادفة غريبة؟

- ماذا تعني؟ هل وجه المحافظ هو المسئول عن الأزمة القلبية؟

– بالطبع. فعبد الحليم كان مخمورا، وكان رأس المحافظ يتأمله وهو يتبول مما ذكره بشيء آثار فيه صدمة مرعبة.

علق هيكل: إنه لأمر مضحك.

– ولكنها جريمة، يمكن أن نُجزم أن المحافظ قتله. بشكل غير مباشر مهما يكن، فلا يمنع أن الامر قد حدث على هذه الشاكلة. مارأيك فى فكرتى؟

ومن جديد. لاعب رياض رموشه كشاب مبتدىء لايعرف سوى هذه الخدعة كى يمارس عمله، أراد أن يبين لهيكل أنه يحمل الأفكار الانتقادية، وأنه ينفذ الأمر رغما عنه. ولكن خطته الساذجة هوت فوق الارض. ولم تجد لدى صاحبه أى حماس. قال بشكل سخيف:

– ألن تقول شيئا. تصورت أن هذه الحكاية تعجبك.

قال هيكل حتى لايخيب أمل الشاب: انها تعجبنى كثيرا.

ابتسم رياض، وأحس أن حركة الرموش هكذا بدت غير مجدية. فأخذ ينتقد المحافظ بشدة، وراح هيكل يباركه، قال:

– لقد استبد بالمحافظ خزى ملحوظ. إنه يعاملنا كأغبياء. فما قرأته فى هذا الإعلان شديد الغرابة. إنه مثير للدهشة. فهذا الرجل راح بعيدا فيما يتعلق بالسلطة. ألا تعتقد ذلك؟

رد هيكل: ياعزيزى رياض. مازلت شابا كى تعرف قيمة هذا الرجل. إنه نموذج استثنائى. وهو يعرف ماذا يفعل، وأنا ازداد اعجابا فى كل لحظة به. دعنى أخبرك أن سذاجتك تؤلمنى.

عبرت ملامح رياض الرقيقة الانثوية عن إخفاق لا حدود له. كأنهم أعلنوا نبأ وفاته. بل أكثر من هذا: انهيار الاخلاق التى كان يعتقد أن هيكل يشاركه فيها، بحث عن شيء بسيط يتناسب مع أوهام شبابه، ولكن فكرته بدت فجأة مزعجة عندما سمع الزئير البعيد لصوت عربة اسعاف تشق طريقها نحو الكازينو، راح الصوت يعلو كلما اقتربت العربة، تخترق الهواء بأنينها المزعج المؤلم. كان هذا

الزئير يعلن عن كوارث الناس حولهما، راح رياض يتأمل هيكل وقد لف رقبته وبدا راضيا، وكأن صوت نفير العربة يبرهن على صحة رأيه. أدار هيكل رأسه نحو مقصورة المحافظ، الذى بدا وقد تجمد من المنظر الذى أمامه.كان المحافظ واقفا أمام مقعده، فأدار قامته وأخذ يحرك عينيه حوله، وكأنه يحاول أن يفهم من أين يجيء الخطر. مما أعطى الانطباع أنه يود أن يقبض على متمرد. فجأة سكت النفير، وانفجرت سعاد فى الضحك وهى تنظر الى هيكل. هذا الذى يستهوى نظر الفتاة، فبدت ابتسامته أكثر سخرية من أى وقت مضى.

(٩)

تحت هذه السماء، راح ينظر من أعلى سطح منزله المشمس الى البحر، نوى كريم أن يقضي يوما مليئا بالأحداث السخيفة، وأن يعطى لهذه الاحداث فرصة الحدوث . عليه أن يمشي بخطى متساوية ، وأن يتوقف أحيانا في ظل الأشجار الممتدة بطول الطريق الترابي . بعين راصدة ، وأن تتجه مشاعره نحو شئ خفى، وأن يهتم بأقل تفاصيل المنظر الذى حوله. كل هؤلاء الناس الذين سيقابلونه، ويسدون عليه الطريق ، ويغرقونه بكلمات مغالية عن صعوبة الحياة . ولهذا كان كريم أكثر الناس سعادة . لاشئ يجعله أكثر متعة من التسكع فى الشوارع حسب ظروفه الطارئة والمفاجئة . فكل ما يراه ويسمعه يسبب له سعادة يعجز عن وصفها ويستثير بهجته . حوانيت غارقة فى الظل ، وبعض الأقبية المظلمة . قد يقترب من العتبات على أمل أن يلتقط بعض العبارات المتلاطمة . كل مايبحث عنه وراء هذا ، هو أن بعض الأمور لا ملابسات لها ، إنه يحب سماع الأفكار المتبادلة بين الادعياء . هناك بشكل خاص جملة يتوقع أن يسمعها كل مرة يدور فيها النقاش بين رجلين ، مهما كان مستواهما الاجتماعى - ففى أغلب الأحيان يتعلق بالأوباش المعدمين. هناك دائما من يقول للآخر كمن أهينت كرامته : «هل تعرف من أنا ؟» هذه الجملة تثير إعجاب كريم ، لقد تفنن منذ وقت طويل فى اكتشاف مكونات إثارة البشر. يبدو هذا شيئا غير قابل للتفكير. ففى هذه المدينة يتصرف الحفاة كأشخاص مهمين . حتى الحكومة اتخذت من الكورنيش البائس المطل على البحر طريقا حيويا ، كأنها تؤكد بذلك ان جنون الكبار يأتى من أعلى . إذن ، فأى مغرور اوباشى يمكن الإمساك به ، وهو يسير على نهج حكومته.

ليس هذا هو هدف نزهة كريم الذى وجد نفسه محشورا - فى ساعة مبكرة - فى هذا الشارع الذى ضربته الشمس ، يقابله جمهور متحرر ، يمشى الهوينا فى الحر والتراب . فبالامس جاءه طلب استدعاء من قسم الشرطة يأمره أن يحضر للاستجواب فى أمر يهم الحكومة . هذا الطلب لم يسبب له قلقا . فقد كان ينتظره، إنه استكمال لمهمة الشرطى الذى نبهه الى ذلك . بسبب هذا الطريق الحيوى . لذا سلك طريقه قبل الموعد المحدد . كى يستغل الوقت . ويعد نفسه للاستجواب القائم على إقامته فى مسكنه الجديد . وبينما هو يتسكع تساءل إذا كان الشرطى العجوز المصاب بالربو والذى تمكن من صعود الأدوار الستة فى الأسبوع الماضى ، قد التزم بوعده ، وكتب تقريرا مفصلا . أم هل كان جاحدا بعد أن قبل طائرته الورقية ؟ راح كريم يسترجع المشهد ، وتردد العجوز المؤلم الذى اعتقد أنه يغويه . لقد نجحت الفكرة فى افساد شرطى مما جعله يضحك ، ولكن الضحكة كانت قصيرة . فهو لم يحس بالسكينة تماماً ، فعليه أن يرد أيضا على أسئلة جريئة . وأن يبكى وينتحب كى ينسى ماضيه كثورى . وهذا يتطلب بعض الاستعداد من ممثل يقوم بدوره جيداً . اتخذ شكل رجل خجول . وأعطى لوجهه تعبير رجل أصيب بكارثة ، واقع تحت عبء مسئولياته . للأسف فليست هناك أى مرآة . عليه أن يكرر الأداء بلا نية فى تصحيح أخطاء التمثيل ، بالتأكيد، لكنه يمكن أن يبدو كئيبا . إنه لامر يبدو صعباً ومنفراً . حاول ان يتخذ شكله العادى ، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يمسح تعبير المعاناة من فوق وجهه . بطريقة أو بأخرى . كان واثقا أنه سوف ينفر كل رجال الشرطة الذين يريدون أن يبعدوه عن مسكنه المريح وأن يلقوا به فى كوخ فى حضيض المدينة . تطلع الى السطح الواسع والى الفضاء أمامه ، إنه من العناصر الأساسية لصناعة الطائرات الورقية.

لقد أصبح الأمر بالنسبة له مسألة سعادة . خاصة أن الطريق أصبح حيويا . إنها قصة جميلة تدفع المرء ان يسبر غور الغباء . كان الأمر الأساسى هو أن يجد الشكل المناسب، وأن يبدو شخصا متكابرا ومراوغا ومنحلا، وألا يتعمد نطق أى كلمة ذكية . فهذا هو الخطر الاكبر . فالذكاء مبهر كالبصقة فى الوجه .

ولكن كيف يخفي ضياء عينيه اللامعتين . هل يستخدم نظارة سوداء؟ ويزعم أن رمداً أصابهما ؟ يالها من فكرة رائعة . لماذا لم يفكر فيها من قبل؟ فالوقت متأخر الآن . وعلى كل ، فهو لايمتلك نقودا كي يشترى نظارة .

بين وقت وآخر ، كانت عيناه تقع على أحد الإعلانات التى علقها البارحة فى الطريق . تابع مسيرته مع وجه المحافظ ، بدت له فكرة ثرية ، وهو يتابع مسيرته نحو مقر الحكومة إنه نادم لأنه صنع هذا الديكور البشع الذى يقفز إلى عينيه فى كل لحظة . كأنه إعلان من الجحيم . كل هذه الصور تعكس مظهر التقوى التى تفتقد المشاعر الروحية تماما . فبعضها يحمل نوايا تخريب بشعة ، شاهد عينى المحافظ وقد نزعتا من مكانها ، أما البعض الآخر فقد وضع له لحية . هذا الخداع البليغ لم يفسده المحافظ فى شئ ، فهو يحس دوما بعرفان الجميل . فمنذ ظهور هذه الإعلانات أصبح أكثر شهرة من نجوم السينما، وهلل الاطفال لصورته . وتعاملوا معه كفيلم مغامرات . هذا الأسلوب الغريب لايصدر إلا عن أطفال أشقياء . لم يهم السلطات سوى ان الإعلانات أثارت تجمعات الناس المؤهلة للمزاح والألعاب الشيطانية بأساليب عديدة . وعلى الشرطة أن تتدخل وتوقف بعض الأشخاص الذين يضحكون أكثر من الآخرين ، بتهمة ممارسة الدهشة . وهذا وحده يكفى . كان هناك دوما شخصان أو ثلاثة أشخاص من مدخنى الحشيش فى الغرزة ، وقد فتحت عليهما صورة وجه المحافظ المثيرة للسخرية والرغبة فى القهقهة . لم يستطع هؤلاء أن يمنعوا أنفسهم من الانفجار فى القهقهة ، حتى ولو وقعوا فى قبضة الشرطة الغاضبة. راح العديد من الناس يكيل المديح لمن لايستحقه . لكنهم ظلوا محتفظين بشرفهم ، مثل هذه الامور اللئيمة الصاخبة التى تتولد فى اللحظات غير المناسبة ، راحت تصنع الزحام فى الطريق العام . ووضعت السلطات أمام اختبار قاسٍ، ضجر جنود المحافظ الذين لم يفهموا شيئا عن هذه البادرة غير الرسمية ، التى لايقوم بها سوى الثوار .

فجأة توقف كريم ، وقد رأى على مسافة أمتار أمامه حلاقا يفترش أدواته فى ظل شجرة فوق الرصيف . دفعه هذا المنظر ان يقص شعره . وتراءت له فجأة

ضرورة أن يقدم نفسه لممثل الحكومة في مظهر الشخص الذي يعتني بنفسه ويكن مشاعر الاحترام تجاه السلطات . فالشعر شيء أساسي ، والشعر الطويل قد يعطي روحا ومسلكا ثوريا . فأقرانه اكثر شعثاً في أغلب الاوقات . ولا يأخذون الأمر على محمل جاد. في أي خطأ جسيم سيرتكبه . وكيف يعرف أنهم لن يرغموه على دفع غرامة لو رأوه بهذه «الخلقة» التي تليق بشخص مثقف ضال . قصة شعر رائعة ، تقريبا على الزيرو وكأنه سجين ، سوف تترك أثرها وستعطيهم برهانا أكيدا عن احترامه للقانون . رجل واحد فقط قادر ان ينفذ هذه الأعجوبة . انه هذا الحلاق الجاهل مع هذه الجزة المدمرة .

تقدم كريم مبتهجا ، مشدوها بقراره، كان الحلاق يقص شعر رجل قصير نحيف ، ذي وجه كئيب ، يرتدي رداءً داكنا مرتقاً ، يتمتع بفقر نبيل ، يجلس فوق مقعد خشبي وقد أسند ظهره الي جذع الشجرة . اغلق عينيه ، كأنه أحد الشهداء يضع ملفا فوق ركبتيه ، افترش فوقه طربوشه البالي .دليلا على أنه موظف ، وكأنه يثير خوف أوباش المكان .

أما الحلاق ، فقد أحنى رقبته أمام زبونه ، وهو يتحرك كأنه يقوم بتحنيط جثة . راح يمرر موسى ذا نصل شديد الخشونة فوق وجنتيه يصدر صوتا أشبه بالمنشار الآلي . لم يزعجهما وصول كريم بالمرة ، فلم يرد أحد منهما على تحيته، اندهش لهذا الاستقبال ، ولكنه واثق في نتائج الأحداث . جلس الشاب فوق المقعد الآخر الخاوي المحجوز للزبائن وانتظر . وفي الحال أحس بأن هناك أثرا لتغيير مفاجئ في الجو . انتابته غبطة غريبة ، راح يهتز شيئا فشيئا وقد أحس بأنه في حاجة الى النوم: طراوة الظل، ورائحة صابون الذقن ، الممزوج بروائح مختلطة بعطر البنفسج . أحس بأنه في جو ريفي . في هذا الحر اللاذع . بدا محل الحلاق المقام في وسط الهواء ، أشبه بحديقة الملذات . مكان من الأحلام الممتعة . أراد كريم أن يبقى هناك أطول وقت ممكن دون أن يتحرك ، وأن ينظر فيما يشبه الوعي الى العابرين الذين يمرون حوله ، وأن يتصرف مثل الملاعين المنذورين للنار الأبدية كان يتلذذ بهذا الاستجمام . عندما سُحب بشكل بشع من خدره بعربة يجرها

حمار توقفت لتوها عن القرقعة بجوار الرصيف . رأى كريم الحوذى ينزل أرضا ، ويخلص حماره ويمسكه من رقبته ، ثم يصحبه الى ظل الشجرة كى يكون قريبا من ناظريه .

قال الحوذى بصوت صادر من أعماقه : يا أسطى عبده . هل انتهيت ؟ إنه فى حاجة لأن يجز شعره .. ابن العاهرة هذا .

رد الحلاق وهو يلقى نظرة على الزبون الجديد ذى الأقدام الأربعة. حالا . دقيقة واحدة وسأهتم به .

الحمار ، إنها مملكة ، لعله يفهم أنهم يتكلمون عنه ، لذا راح ينهق بطريقة مزعجة فى أذنى كريم . وخلال لحظة ، لم يستطع الشاب أن يتماسك ، فراح يوجه كلامه الى الحوذى :

– هل يُنهق هكذا دائما ، أم أن هذا عيد ميلاده ؟

قال الحوذى : الجو حار . إنه حمار عجوز ، ولكنه طيب .

بدا الحوذى شديد الغلظة ، ولم يتحمل السخرية . فقد جرحه كريم . انتظر ردا لائقا . وأمام الفقر الفكرى لمخاطبه . بدا عصبيا وقال :

– لا أشك فى ذلك . ولكن حاول أن تسكته ، إنه غير محتمل .

راح الحوذى يربت على ظهر الحمار ، ويخاطبه بكلمات عذبة ، كأنه يغازل عشيقته ، ثم ألقمه ببعض حزم البرسيم . فهدأ الحمار قليلا قليلا .

وراح يلوك فى الفضاء كل هذه الوعود الماكرة . وفى ذلك الوقت كان الحلاق قد انتهى من زبونه الذى وضع طربوشه على رأسه وطوى ملفه أسفل ذراعه . وعندما أحس بأن مشاحنة سوف تتولد قرر ألا ينحشر فى شجار أحد أطرافه حمار .

أمسك الأسطى عبده مجزه واقترب من الحمار وبنظرة عصبية لفنان جاءه الإلهام أخيرا . ولكن قبل أن يبدأ مهمته أوقفه كريم بحركة ، وقام من فوق مقعده :

– ماذا يعنى هذا يا رجل ؟ أنا هنا قبله . وأنا مستعجل .

قال الحلاق : معذرة يا أفندم . ولكن هذه عادة قديمة . ولايمكن أن أجعله ينتظر.

– سينتظر وأنا أكرر عليك أنني متعجل .

قال الحوذي : هذا الحمار متعجل أكثر منك .

علق كريم . لماذا ؟ هل سيذهب إلى حفل زفاف ؟

رد الحوذي بلهجة مكابرة : ليس لدينا وقت للذهاب لحفلات زفاف، نحن نشتغل .

راح الحمار ينهق ، وكأنه يحس بالفخر أنه السبب في كل هذا . مد الحوذي المجز بطول ظهره وهو يغني له بصوت رقيق مسموع . انتاب كريم سُخط فبدأ يثور لكل هذا الاهتمام الذي يلاقيه الحمار . ترى ماذا يكون هذا الحيوان ؟ حمار حكومي ، ربما وزير ، جاء جلسة وراح يتصرف كالموظفين ؟ لم يدهشه هذا في شيئ . فقد شاهد المعاملة الاستثنائية التي يلقاها من الحلاق ، بدا الموقف غير متكافئ تماما بالنسبة لكريم . فغرق في متاهة . عليه ان يتصرف بحذق كي يخرج دون أية خسائر . فهو لا يمكنه ان يغادر المكان ، أحس أن أمامه ساحة من الجدل المثمر ، لم يكن عليه سوى أن يثريه . فمثل هذه الحالة من الشرور لاتمثل له الشيئ الكثير .

رفع كمه ، وبدأ ينظر في ساعة يده ، واستكمل موجها كلامه الى الحلاق :

– ألم تأخذ في حسبانك يا رجل انني على موعد مع المحافظ . فتجعل هذا الحمار يسبقني ؟

سأل الحوذي وقد بدت عليه الدهشة لعلمه بوجود شخص ما : أي محافظ؟

انفجر كريم : أى محافظ ؟ محافظ هذه المدينة !

ردد الحوذي : هل في هذه المدينة محافظ . لاتقل هذا ايها الشاب . حتى استطيع أن أصدقك .

صاح كريم : هذا سر تخلفنا . فأمثالك من الناس يصنعون منا شعبا متخلفا .

بلغ الجنون حده، أحس كريم أنه غير قادر على إيقاف الآلة التى فتحت النار . لقد دفعه شيطان رجيم أن يورطه أكثر محاولا أن يدفعه الى ذلك الجدل العبثي . تردد أن يترك هذا الجو اللطيف الظليل كي يرمى بنفسه فى الشارع الحار المرعب ، ولمضايقات استجواب الشرطة . قال غير واثق فيما سيفعل :

- سأذهب .

ولكنه بقي ينتظر المجهول ، كأن هذا الموقف سوف يسلط ضوءاً ساطعاً سيكشف له كل وجه البشرية الغامض . قال الحلاق ، وهو يمسك مجزه ويرفعه عن الحمار الكثيف الشعر .

- انتظر يا افندم . لقد انتهيت . حان دورك الآن .

رد كريم بفخر : لا . لن أكون بعد حمار .. أنت لاتعرف إلى من تتكلم .

فكر الحلاق لحظة ، وهو يرفع المجز . وقد ارتسمت ملامح القلق على وجهه وسأل محيرا :

- من أنت يا افندم ؟

علق كريم بطلاقة : لن أضيع وقتى لاخبرك من أنا . انشغل بهذا الحمار فهو الزبون الذى يليق بك .

قال الحوذي وقد اكتسى بتوحش : أنت إذن تشتم حمارى . من أنت كى تجرؤ على إهانة هذا العامل ؟

التقط كلمة «عامل» بدهشة من ذلك الأوباشي الرقيق ، فالحمار له حق الاحترام ، ليس كحيوان . ولكن بصفته «عامل».. ولبضع ثوان ، ظل كريم مفتونا بهذا الرد الذي خفف عنه طول الانتظار . ثم أدار ظهره الى الرجلين وألقى بنفسه فى الحر وأحس بالسكينة تهب عليه .

لايمكنه الآن سوى أن ينسحب . فهذه المسرحية عند الحلاق قد أخرته، وهو مضطر أن يعجل خطاه كي يصل إلى مبنى المحافظة فى الساعة المحددة لاستجوابه . أحس بالانتعاش وامتلأ بالأمل . وتهيأ تماما لمواجهة كل الشرطة الماكره القاسية التي تسبب له الضيق عند استجوابه . راح يقطع الدرب وهو يشق لنفسه طريقا صعبا بين الجماهير التى سدت عليه الطريق .

توقف لاهثا كي يفحص المبنى الكبير الأبيض الذى يعلوه العلم ، علم الحكومة . لم يأت هنا منذ وقت طويل ، تردد وهو يجتاز البوابة متذكراً أى سبب حقير أدخله هنا فى الماضى ، عندما كان ثورياً متكابراً كم هو خجول من هذه الذكرى التى تكشف عن غبائه آنذاك . كيف استطاع أن يفهم أنه الاكثر قوة . وأن ادعاءه ليس سوى مبعث للدهشة . لحسن الحظ ، لقد انصرم هذا الزمن البعيد . زمن خفض الرأس ، وارتسمت على وجهه دلائل الخجل والخوف . اندفع عبر الباب الأثرى المفتوح على مصراعيه كأنه مصيدة مستعدة ان تنغلق وتلتهم فريستها . هزته رعشة وانسال عليه عرق بارد . ليس من الخوف ، ولكن من مروره المفاجئ فى ظلال المبنى الضخم . تقلص أكثر . ارتدى زى مواطن لا افكار له أو طموحات مخلوق خاضع لقدره ويخشى كل السلطات . فى هذا الشخص الجديد لم يميز قط أشخاصا آخرين يملئون القاعة الواسعة بالدور الأرضى . العين متحجرة وباهتة ، تنتقل من مكتب لآخر ، متوجهة نحو عقاب مؤلم . تصرف كريم كشخص يعرف المكان جيداً، دق السلم الحجرى الكبير . صعد الى الطابق الثانى. رأى «عسكرى» جالساً خلف مائدة ، يقرأ جريدته دون ان تتحرك عضلة واحدة في وجهه . لعله بلاشك لايعرف القراءة . بل فقط يتظاهر بذلك . مد له كريم خطاب الاستدعاء أمسكه الآخر . وألقى عليه نظرة سريعة ، وقال هامسا :

– اتبعنى .

تبعه كريم في صمت . بشخصه المسكين الصعلوك المختال . فتح الحارس الباب، وترك كريم يمر . ثم أغلقه كأنه يوقظ شخصا نائما . زُكم كريم برائحة مألوفة من صالة الاستجواب . رائحة غامضة تعطى الاحساس أن العبث البشرى يفوح من أناس تثير الغثيان . أناس من كافة الأنواع وكافة الأنحاء ينتظرون فوق مقاعد بجوار الحوائط . مجمدين في استسلام تام ، يبدون كأنهم هنا منذ بدء الخليقة، بدا مظهرهم مغبراً ، وملابسهم بالية . أشبه بتماثيل قديمة تم إخراجها من بعض الحفريات . راح كريم يتأملهم لحظة وقد علاهم الغبار ، كأن شخصا يزورهم لاول مرة ، رفات سراديب الأموات . سحب منديله من جيبه ومسح العرق من فوق جبينه كي يثبت لنفسه انه لايزال على قيد الحياة . فهم لتوه الحقيقة المؤلمة . فكل هؤلاء الناس يمثلون نفس ملهاته . التزموا الصمت واكتسوا بهذه السحنات الشاحبة على أمل وهمى أن يتصوروا أنهم موتى . ليس أمامهم سوى أن يمتثلوا لمخالب الطاغية . اعجب كريم من فنهم في التظاهر ، وكان بالغ السعادة أن ينظر بعين الحسد لمثل هذه النماذج البشرية . جلس في مكان خاو بأحد المقاعد وقد اكتسى بمظهر المبتئس . ظل ساكنا لحظة ، وحاول أن يتلاءم مع هؤلاء الضحايا الصامتين ، ثم وبكثير من الحذر، راح يخاطر بالقاء نظرة الى أعماق المكان . جلس الضابط المنوب خلف مكتبه يستجوب رجلا ذا عينين معمصتين ، يبدو أشبه بهيكل عظمى ، كأنه جاسوس في بلد فقير ومعدم. وعلى مسافة منه يقف شرطيان ذوو شوارب كثيفة يرتفعان لأعلى . كان كريم يعرف الضابط . إنه حاتم . نفس الشخص الذى سبق أن استجوبه . فاجأه هذا الاكتشاف وصدمه في نفس الوقت . فقد اعتقد أن النظام الجديد قد قام بتغيير رجاله . يالها من سذاجة! كان عليه أن يدرك شيئا بالغ البساطة وهو أن سلطة الشرطة الدائمة هي في امتثالها لكل الأنظمة .

في أعماق الغرفة . جاء صوت حاتم غاضبا وناقما . بدا الضابط وكأنه يعانى مع زبونه . سمع كريم هذا الأخير يطلق تنهيدة طويلة على سؤاله المكرر ، بدا هزاله الشديد وكأنه يمنعه أن ينطق كلمة واحدة . أبدى حاتم دهشته وهو يهز رأسه من هذا الخارج على القانون وحتى لاينفجر ضاحكا . كان على كريم أن

يتذكر موقفه الحرج . فهو فى وضع لايحسد عليه . وعليه أن يعيد كل خططه . كيف سيمثل على حاتم الملهاة ؟ إنه يعرفه جيدا . ولن تمشى معه حيلته حيث ستبدو تحولاته المعنوية والمادية ، بعد سنوات ، مشبوهة أكثر . لذا عليه أن ينوع أداءه ، وأن يدخله فى مسألة الكرامة ، هذه الكرامة التى يتعامل معها حاتم بهمجية ويسعده أن يحطمها . قرر كريم أن يقدم له شيئا من الوقار الشكلى كهدية.

وبدون انتظار . بدا حاتم وقد نال ما يكفيه من زبونه وراح يصرفه بحركة غاضبة لأحد جنود الحراسة . وبعد لحظة ، بدأ يتمطع ، تنفس الصعداء . كأنه يتحرر، ثم راحت نظرته تتفحص كل من الأشخاص الجالسين على المقاعد . كأنه يبحث عن شخص بعينه . لأنه فى كل مرة يهز رأسه دليلا على الاخفاق . فجأة لمع بريق فى عينيه، وهو يرى كريم وسط هذا الجمع من الحثالة البشرية . ارتعدت أوداجه وارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه . كأنه قد كسب جولة جديدة .

صاح وهو يشير بأصبعه الى الشاب : يا كريم أفندى .

قام كريم وجاء ليقف أمام الشرطى . قال بلهجة متواضعة وهو يخفض عينيه وكأنه فى حالة تأنيب ضمير : السلام على سعادتك .

بدا الضابط مبغوتا قليلا، نظر بانتباه الى كريم وكأنه قد خُدع فى هويته قال :

– يبدو أننى احلم .يظهر أن الزمن لم يمر عليك . ماذا حدث لك ؟

راح كريم يحتفظ بعينيه منخفضتين . ولم يقل شيئا . فهو يعرف أن الانطباع الاول تتوقف عليه بقية الاستجواب . راح يبحث عن كلمات بينما استكمل حاتم:

– اجلس . انت لاتعرف كم أنا سعيد لرؤيتك .

جلس كريم فوق المقعد الذى تركه سابقه لتوه وأطلق نحو الضابط نظرة امتنان :

– لقد فهمت أننى كنت على خطأ ، سعادتك. ألا يمكن للشرطة أن تنسانى؟

هتف حاتم : تتساءل لكنك تركت ذكرى لاتُنسى . لقد كنت مستعدا لتدمير كل شئ . وعدتنى أن تقبض علىّ اذا وصل اصدقاؤك الى السلطة . أليست هذه كلماتك ، أم أننى كنت مغشوشا ؟

قال كريم : إنها غباءات . كنت أمزح مع سعادتك . كيف يمكنك أن تصدق إننى كنت أتكلم بجدية ؟

– ماذا تقول ؟ هل تعاملنى كغبى ؟

– ليحفظ الله سعادتك . استطيع أن أقول إن هذه الأشياء كانت فى لحظة ضلال . ثم لقد نسيت ، سعادتك ، ان هذا كان فى ظل النظام القديم .

– أمر جميل . هل أنت ثورى أم لا ؟ هل يمكن أن تفسر لى فيم يعجبك النظام الجديد أكثر من الاخرين ؟

صرخ كريم بصوت رفيع من الصعب أن أشرح ذلك . لكن هذا شئ يُحس به . لايوجد أى شك أنه نظام جيد ، وان الجو تغير . على سبيل المثال، الآن اذا مشيت فى الشارع فان درجات الحرارة تبدو أقل .

– آه ... درجات الحرارة أقل . هل هذه هى كل المزايا التى تراها فى النظام الجديد ؟

– النظام الجديد بلاشك مزايا أخرى ، ولكننى ربما لم أحظ بها ، سعادتك.

انتهى الكلام ، بدا كريم فخورا بوجوده ، بينما بدا الضابط متجهما ، ومن الواضح أن الشاب يلف به . انه بالتأكيد يسخر منه ، لقد كان يعرف تماما عقلية كريم ، ولاشئ يجبره أن يسلك طريقا مخالفا . إذن هناك سر يناضل أن يعرفه . ويجب أن يعرفه .

انتظر حاتم مجابهة مع خصم جموح . موجود أمامه . ورغم كونه رجل شرطة ، فان لديه فرصة ، فى بعض الأحيان ، أن يعجب بالشجاعة القوية لروح الثورى التى تحرك الشاب . وهو سعيد أنه يحقق معه من جديد . فهو يتعلم أشياء كثيرة من هؤلاء الثوريين . أشياء جيدة للغاية ، ومن مركزه الأعلى . فحاتم يدرس كافة التفاصيل المتعلقة بموضوع الاستجواب .لذا يعاملونه كضابط مثقف . قادر

ان يحتفظ فى رأسه بمعلومات شاملة عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يريدون قلب نظام الحكم . فى الحقيقة فكل معلوماته فى المهنة تتلخص فيما ينتزعه من استجواب بعض السياسيين . وهذا ما يريده من كريم فى موقفه الساخر . ابن الزانية هذا لم يوضح له شيئا عن موضوع الاستجواب سوى أن الجو أقل حرارة الآن منه فى ظل الأنظمة الأخرى ؟ إنه يسخر منه بالتأكيد .

راح الغضب يعتمل فيه ، ولكنه كان سعيدا . تأمل الشاب بعين الطبيب الفاحصة القلقة باحثا عن تشخيص للمرض بأقل درجة من العناء . لم يبد من كريم أى رد فعل . ظل محتفظا بموقفه . وهو يكتسى بالتواضع المأساوى والواقع عليه . جحظت عينا حاتم . انه فى قمة خيبة الأمل . خيبة حقيقية وهو يرى نفسه يتقبل توبة الشاب . لكن لاشئ يدفعه أن يصدق . اللهم الا أن هذا أمر بالغ السهولة . الثورى لا يتغير . على الأقل بهذه الطريقة . إنه مثل الشرطى لايمكن للنظم السياسية أن تراه من داخله .

أطلق تنهيدة تسليم تعنى أنه لم يتنازل عن موقفه. ثم فتح الملف الذى أمامه وأخذ يتفحص بعين منهكة ومتعبة . ثم راح يقرؤه ، أصبح وجهه أكثر تعبا . وكآبة، كأنه يبحث عن دليل يمكن أن يؤدى بالمستجوب إلى الاعتراف، فجأة رفع رأسه وتأمل الشاب من جديد ، ثم تفجرت عيناه بعاطفة ما . بدا وكأنه يقتفى شيئا أكثر مهابة .. أما كريم فكان يخفى رجفة خفيفة من الخوف جعلته فى رهان مع نفسه على إحباط محاولات خصمه .

– حسبما قال المخبر الذى زارك . يبدو أنك تعمل ، وتصنع طائرات ورقية أليس كذلك ؟

– الحياة صعبة ، سعادتك . وأنا أفعل ما بوسعى .

– حسنا . كلمنى قليلا عن الطائرات الورقية . كيف هى ؟

أوصلت نظرة حاتم المليئة بالشك ـ مضيفه بهذا السؤال الغبى إلى قمة الميلودراما الساذجة . فهل يشك الضابط أنه يستخدم الطائرات الورقية لتصوير الأهداف العسكرية ؟ ولم لا ؟ فكل شئ جائز فى خيالات الشرطة .

– إنها طائرات ورقية صغيرة . سعادتك ولا ضرر منها . ماذا تعتقد ؟

– لا عليك عم أعتقد . ولكن فيم تستخدم ؟

– تستخدم في تسلية الأطفال . لا أكثر .

لم يبد حاتم مقتنعا . أما كريم فكان يعاني إنه لايستطيع أن يفجر القيد الهائل الذي يخنقه . استمر الضابط في مواجهته بتحد ، فهو لايوافق ببساطة على حكايته . وهو على يقين أن الطائرات الورقية تُستخدم في بعض الأمور السرية . لكنه تردد أن يرتمي فوق هذه الرمال المتحركة . المليئة بالمكائد، وأن يخاطر بأن يفقد مهابته . أخذ يحرك يده وكأنه يحاول اصطياد ذبابة، وكانت هذه طريقته في ترتيب الأمور .

قال : لندع هذا الآن . أخبرني عن رأيك في الوضع العام بوضوح .

– أعتقد أن كل شئ على ما يرام . سعادتك .. أنا لا أرى شيئا يمشي بشكل غير طبيعي . أحس أن الشعب مبتهج . وأنه صورة نموذجية من السعادة .

– حسناً، دعني أخبرك أنك متفائل جدا ، هناك ايضا أوغاد ، وأقذار يقومون بإثارة الأمور ، يبدو أنهم ليسوا سعداء من النظام الجديد ولا من غيره . ماذا يجب ان نفعل كي نعجبهم . أنا أسألك ؟

– لا اعرف ، سعادتك ، فأنا لا أشتغل بالسياسة ، وسوف أتزوج قريبا .

بدت هذه الكلمات الأخيرة على حاتم وكأنها كارثة . سأل بوجه يكسوه الاشمئزاز :

– هل ستتزوج ؟

رد كريم بصوت رجل سوف ينتحر . أجل سعادتك .

أغلق حاتم ملفه بكل صلافة . وبدت الحركة وكأنها أبعدت الشاب من عالمه قال وهو زائغ البصر :

– حسنا . الآن ، يمكن ان تبقى حيث أنت . ولكن حذار . فعند أقل خروج على الشرعية سوف استدعيك من بيتك .

استعد كريم لأن يشكره عندما انفتح الباب في هذه اللحظة، وظهر المحافظ

شخصيا . قام حاتم ساحبا معه كريم ، وأيضا مجموعة الاشخاص الجالسين فوق المقاعد . والثوان ظل المحافظ واقفا عند عتبة مكتبه ، يفحص الصالة بعينيه الجاحظتين ، ثم راح يمشي ، وهو يخبب ساقيه المتموجتين وكأنه يمتطي حصانا ثم وقف قبالة كريم ، الذى أخذته المفاجأة ، وأسرع نحوه ، وأمسك يده وقبلها وهمس ببعض الكلمات غير المسموعة . ثم عاد الى مكانه وهو يلهث كرجل فوجئ بسعادة غامرة لايستحقها . لم يهتز المحافظ قط . ولم يتراجع فى خطاه . فقد اعتاد مثل هذه الأمور . واستمر فى الخبب ، فوق حصانه الخفى ، ثم خرج أخيرا من القاعة .

ترك المشهد الذى لم يتوقعه كريم جاثماً منهارا تماما . فقد حاول أن يمنعه معتقداً أنه يهجم عليه . ولكن ما رآه كان أشد من هذا . فقد انقلبت الدنيا . وهذا الكريم الذى يعتقد أنه يعرفه قد أصبح فجأة غير محسوس الجانب . تأمله بعين مندهشة وكأنه ينظر الى حيوان لزج ، راح كريم يرمقه بعينين بالغتى النقاء . لقد خاطر أن يستخدم كافة أساليبه منَ أجل أن يبهر حاتم . وأن يقدم البرهان الأكيد لتويته انه لايشك أن مهمته قد نجحت .

أشار له حاتم بالجلوس . قال :

– يا إلهى ، أنت تدهشنى أكثر فأكثر .

– لماذا ؟ سعادتك .

– من الصعب علىّ أن اصدق أنك فعلت هذا . أن تقبل يد المحافظ

قال كريم : ليس هذا مدهشا ، فالمحافظ أبونا فى كل شىء على الأقل هكذا أراه .

فكر حاتم للحظة . فاهتمامه بالشاب بدأ يزيد . وفى هذا السقوط المثير البادِ أمامه بلا مقياس ، لم تنتابه فكرة براقة بصفته شرطيا ذكيا . ربما كل شئ لم يتضح بعد .

– اذن ، مادام الأمر هكذا ، ربما نستطيع ان نتعاون، لعلك لاتريد، أليس هو «أبوك »، كما تقول . هل علمت بموضوع الهجوم البشع ؟

- لا طبعا . ماذا يمكنني أن افعل ؟.

- أريد أن أعرف رأيك في بعض الإعلانات التي ظهرت أخيرا فوق جدران المدينة .

سأل كريم ببراءة : أي اعلانات ؟

قال حاتم · سوف أشرح لك . إنها اعلانات تصور وجه المحافظ الى جوار كلام مكتوب ملء بالتقريظ . تقريظ كريم . هل رأيتها ؟

- هل هي الإعلانات التي تتكلم عنها ، سعادتك ، بشرفي ، إنها إعلانات جميلة للغاية . في كل مرة أرى واحداً منها . أقف لأتاملها، لدرجة أنني حفظت النص عن ظهر قلب . هل تريد ان أسمعه لك ؟

- وفر عليك تعبك . وأخبرني هل يمكنك أن تدلني الى مصدر هذه الإعلانات . من طبعها ومن علقها على جدران المدينة ؟

- طبعا سعادتك ، أعتقد أنها شئون المحافظة . فهذه الإعلانات لاتقول سوى الحقيقة عن محافظنا العبقري .

- انت مخدوع . فشئون المحافظة لم تطبع هذه الإعلانات، ألا تعتقد ان زملاءك القدامى قد فعلوا ذلك ؟

هتف كريم : ياله من يوم أسود ! أنا مندهش . لماذا يتفنن زملائي القدامى بمدح المحافظ ؟

- لعل جنونا أصابهم . أحاول أن أفهم .

حاول حاتم أن يكشف مدى الارتباك الذي سببه له ظهور هذه الإعلانات بحثا عن أقل بادرة يمكن أن تمده بأمل يتوصل به إلى منظمي هذه الحملة المسمومة التي تأهبت لها كل شرطة المحافظة ، وموهبته كضابط ماهر لم ترق إلى أي درجة من الشك، فهذه أول قضية من نوعها يراها منذ عشرين عاما انشغل فيها بالقضايا السياسية . عمل مهيب، وفي نفس الوقت بالغ الخطورة يخرج تماما عن المألوف . لم تتوصل تحريات الشرطة الى نتيجة في أي مكان . تساءل حاتم عم اذا كان قد دخل عصراً ثورياً جديداً ، يلزمه أن يعاود النظر في طرق التحري لقد

ولد أسلوب جديد . وظل هناك كغبي ، يجهل مصدره وأسبابه مما يصيبه بالحسرة

– إذن، فأنت لاتعرف شيئا.

لم يكن هذا استجوابا حقيقيا. ولكن هناك محاولة أخيرة لامساك معصم الحقيقة. بدا كأنه يسمع إجابة كريم بلا أمل كبير. رد كريم بصوت رخو وهو يدقق في الضابط بنظرة فارغة المعاني :

– ابدا سعادتك.

غزا «حاتم» احساس ثقيل بالفشل. واكتسى وجهه بالاخفاق. لقد انتهى الاستجواب الى فراغ. لم يأخذ شيئا من هذا الثوري التائب. الذي سيتزوج عم قريب، ويصنع طائرات ورقية لتسلية جموع الخاطئين، هل يمكن أن يسقط في حضيض أشد عمقا؟ لقد باغته وسبب له نوعا من الندم العبثي. ترى هل هو من طراز الثوريين الضائعين؟ لايزال لديه الكثير منهم. فكل المنتقمين يستعدون لزرع الفوضى في طريقه. طالما أن شيئا ما مات لتوه، مجرد شعلة بسيطة من حريق ضخم. يكاد أن يحرق العالم.

اتكأ على مكتبه، وغطى جبينه برأسه وقال دون أن ينظر إلى كريم: يمكنك أن تذهب الآن.

قام كريم وحيا الضابط وهو ينحني أرضا، ثم استدار وولى. وفي الممر أطلق غمزاته الخفيفة من رأسه يمينا ويسارا لهؤلاء البائسين الذين عليهم الدور من بعده. ولكن هؤلاء لم يعيروا تحيته أى انتباه. خرج الى القاعة وأغلق الباب خلفه بهدوء، وكأنه يظهر مافعله للحاجب.

وبعد قليل توقف في الشارع الذي بدا خاليا تماما، تحت ظل شجرة، واستدار كي يفحص الطريق، وعلى مسافة تفصله كثيرا عن مبنى المحافظة، حيث اختفى المبنى الأبيض الكبير بعيدا وسط ضباب الحر وبدا أشبه بسراب. أحس كريم أنه خرج من حلم.

(١٠)

راح كريم يتابع الأرداف الذابلة أسفل الملابس الخفيفة للنساء وهو مستند على سور الكورنيش الحجرى، وقد خلب تماماً باختلاف أوزانهن، إنهن هناك من كافة الأشكال والأحجام، وفي الضوء الرمادى، علامة غروب الشمس، تبدو هذه الارداف المهتزة وكأنها تمتلك حياة ذات إيقاع واحد وتعقد مع كريم اتصالات رقيقة لذيذة، فصاحبات هذه الأرداف في أغلبهن دميمات ولا يثرن الرغبة لدى أى قاتل سادى، لم ينتبه كريم كثيرا إليهن، لم ينظر الى وجه امرأة إلا نادرا. فقد كن بصحبة رجال بدناء متجهمين يلبسون ملابس الصيف: من الاقمصة القصيرة الاكمام حتى البيجامات القطنية، يقزقزون لب البطيخ ويرعبون زوجاتهم وبناتهم ويلقون على كريم نظرة فلاح حذر يحرس أبقاره ضد لص مرتقب، راح كريم يرد بسخرية على نواياهم الخبيثة. يحدث هذا كل مساء، النزهة المعهودة للأسر من أجل الترويح عن النفس، وشم هواء البحر عقب حرارة النهار الخانقة. كان هذا المهرجان من الأرداف يمثل الإيقاع اليومى لكريم، الذى نزل من السطح من أجل السهر، يتحين فرصة تواتيه أحيانا بأن يجد إمرأة وحيدة، مستعدة للمغامرة، فيروح يمارس هوايته البسيطة والبدائية. فكريم يعرف كيف يتصرف مع النساء مثلما تصرف مع ضابط الشرطة، إنه لايخاطبهن بكلمات ذكية خشية النفور، فالغباء علامة أكيدة أن الحياة تدور.

لكنه لم ير أحداً يأتى في هذا المساء، فالصيد نادر، إنه هنا منذ ساعة، ولم يصطد أى فريسة. فكل النساء يعبرن فى صحبة. أو إنهن خادمات دميمات يسحبن فى أثرهن أطفالا أصغر سنا. بدأ كريم يحس بالعصبية، فها هما عاشقان

متشابكي الأصابع حتى لايفقد أي منهما الاخر يمران من أمامه، تبدو عليهما العجرفة والكبرياء. وبشكل آلي راح كريم يتتبع ردفى الفتاة، فجأة هفت ذكرى في مخيلته، لم تكن سوى ذكرى مضاجعة، لان هذه تذكره بوجهها. إنها الغانية اللطيفة الصغيرة التي آواها ذات ليلة ولم تعد إليه ثانية، لقد أخبرها أن عليها أن تعتبر منزله بيتا لها .. وتصرف بكرم معها، حقا إنه في هذه اللحظة لم يتمسك كثيرا بها. كأن ذلك بمثابة دعوة عابرة من أحد أن يلينها ويستميلها أكثر في مسألة المال. ربما أنها فهمت نيته. لقد غمرته موجة من الشفقة، شيء غريب، فوجه الغانية الصغيرة ماثل في مخيلته، أصبح بالنسبة له وجها مألوفا منذ أمد طويل مألوفا، مثل وجه أمه. ندم فجأة لتصرفه الشديد الحقارة مع هذه المسكينة. ترى أين يمكن أن توجد الآن؟ ود أن يبحث عنها. خاصة أن شرطة المحافظ تطاردها وتمنعها من عملها، انها ايضا ضحية لهذا المحافظ الملعون.

بالنسبة لهذا الأخير، فإنه قد مر الآن حوالي أسبوعين على استلامه رسالة هيكل، الذي يطلب فتح باب الاكتتاب الشعبي لإقامة تمثال للمحافظ ، لقد نشرت كل الصحف الرسالة فأثارت الدهشة بين الأشخاص الأكثر ارتباطا بالمحافظ وسلطته الديكتاتورية، وانتشرت الاقاويل بأن محافظ العاصمة تضايق من هذه الشعبية ، وبدأ يتصرف كرجل قادر على تنظيم دعاية جميلة لأهدافه الخاصة. ففي هذه الأثناء راح المواطنون الذين لايعرفون من أين تأتي الرياح، يتعجلون كشف الحقيقة. فالنقود تهب من كل مكان، وقيل أن هناك قفة سماوية لاتنضب ابدا، فقائمة المتبرعين تُنشر كل صباح في الصحف. وكريم نفسه يود أن يذكر اسمه فيها وأن يساهم بقرش لحساب التمثال. ولكن لدرجة أن بعض القراء المجانين والاقل وعيا، كتبوا للصحف بمقترحات عن تمثال صديقهم وألحوا الى مكان مفضل يوضع فيه التمثال مستقبلا. وبلغ الهذيان قمته. واقتربت اللحظة التي اقترح فيها هيكل أن ينفذ حيلة هزلية جديدة اذا لم تنجح هذه الأخيرة عن ابعاد المحافظ للأبد، كان على كريم أن يذهب إليه هذا المساء ليناقشه في الأمر. فقد هزته مسألة المحافظ فجأة، لكن يجب عدم تجاهل الأمور غير الظاهرة. ففي أعماقه، إن كريم يتمنى أن يستمر المحافظ بضعة أشهر، وهي الفترة التي سيتم

فيها نحت التمثال ، كم غريب أن يرى المحافظ جالسا فوق قاعدة. وهذا شيء محتمل الحدوث.

حل الليل بطيئا ، وأضيئت المصابيح، فجأة نثرت اساورها اللامعة كاللآلئ بطول الكورنيش أصبح الهواء اكثر قابلية للتنفس وتأخرت نسمة المساء : هبت رائحة الذرة المشوى ممزوجة بصيحات الباعة الجائلين . خلا الكورنيش شيئا فشيئا من العائلات . لم يبق سوى بعض العشاق . انحشروا في الاماكن المظلمة من أجل لمسات سريعة مثيرة للخجل .

شرد كريم بعيداً ، أحس باليأس من لقاء الفتاة ، لاحظ شبح رجل يستند على السور. على يساره بمسافة، أدار الرجل رأسه بسرعة حتى لا يرى وجهه. كان يقف خلف دائرة الضوء الساقط من المصباح القريب. صُدم كريم فى هذا الموقف المباغت وهذا التصرف اللئيم، فالمتنزه الوحيد الذى يختفى فى الظلام هو طاهر صديقه القديم فى الحزب الثورى. لم يره منذ أمد طويل. إنه واثق أن بصره لم يخدعه. فقد حدده بنظرة واحدة، فبالنسبة له كان شبح طاهر معروفا تماما فى ظلام الليالى، خفق قلبه. وأحس بالخيبة، ارتبك للقاء زميله القديم، فجأة انتابه شك مرعب، فهذا اللقاء بعيد عن المفاجأة. يبدو أن طاهر يتجسس عليه منذ وقت طويل. ترى ما السبب؟ لماذا لايأتى ليحييه. إنه يعرف طاهر جيدا، لذا يردد هذه الاسئلة، فطاهر مؤامر بطبعه. يقدس المناورات والدروب الطويلة الخفية. ولايمكن أن يقترب من شخص دون أن تلوح حوله بعض الاتهامات المريبة. قرر كريم أن يتركه يلهو، فلديه بعض الوقت ليضيعه قبل أن يذهب الى هيكل.

راح يمشى ببطء كى يمنح طاهر فرصة للتجسس عليه. كم مزق قلبه أن يجد نفسه مُجَدداً فى صحبة طاهر. لم تكن لديه أى رغبة للنقاش معه فى المسائل الاجتماعية والسياسية. فهما منفصلان تماما الآن. بالاضافة أن طاهر لا يميل الي التراجع ، ربما سيعامله بقسوة. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه بعض الذكريات المشتركة ، لقد ترك فى نفس طاهر بعض الأحداث المدمرة، فقد تم القبض عليهما معا، ودخلا السجن معا، وكان الصديق الاكثر قربا منه روحا.

أحبه وأعجب بنبله اللامبالي، وشجاعته في الخصومة . كان صبيا ذكيا لامعا، ينتمي لأسرة من العمال الفقراء تقتطع من خبزها كي تدبر تعليمه، وقد تخرج من المدرسة بعد دراسات مناسبة. ورفض كافة الاغراءات الكريمة كي ينضم الى الثورة منذ كان ضد السلطة.

فجأة لمعت فكرة، بدا كأنه نساها تماما من ذاكرته، لقد لاحظ الآن أن طاهر يمسك شيئا في يده، تذكر أن زميله اعتاد أن يتنزه دوما مع قنبلة من صناعته. وعندما سأله إذا كان يعتمد عليها هز رأسه بكل ثقة وبصوت أجش: «الأقذار يستحقونها . سأجد مكانا لإلقائها»، كان كريم واثقا أن طاهر لم يفقد قط أساليبه الغريبة. هذه اللفافة التي يحملها يمكن أن تكون قنبلة ويخاف من محاولة اغتيال ضده شخصيا . يمكن لطاهر أن يلق هذه القنبلة في وجهه وبلا شفقة مادام أنه يعتبره خائنا . فهو يعرف عقليته ونظرته لشرفه الثوري، فطاهر لايتردد في إلقاء قنبلة على أمه اذا لم تتفق مع رأيه، ازداد اضطرابه، راح كريم يبحث عن وسيلة للهروب من هذه الورطة، فأخذ ينظر قلقا الى الكورنيش الذي خوى من المتنزهين، لم ير ركنا مناسبا للاختباء، لم ير سوى عربة بائع ذرة مشوى واقفة فوق الرصيف تحت ضوء المصباح، هل يختفي خلف العربة؟ غبي، فسوف تقع العربة عليه، ثم إن التاجر يتأهب لغلق محله وكأنه يتوقع اقتراب كارثة، أسرع كريم الخطى، وأحس كم هو سخيف ولم يجرؤ أن يستدير ليرى اذا كان طاهر لايزال يتبعه.

ناداه صوت أجش ، وأوقفه:

– ياكريم، لست في حاجة للهرب مني.

استدار كريم وابتسامته تغطي شفتيه، وتصرف كامرأة تقابل عشيقها القديم الذي خانته وهجرته، فتح ذراعه علامة على حسن الاستقبال:

– سلام، يا أخي طاهر، يالها من فرصة سعيدة ! كيف حالك؟

أراد أن يأخذ طاهر بين ذراعيه، ولكن هذا راح يعانقه وهو يعود القهقرى، رد طاهر:

– على مايرام، وأنت، هل تقضي وقتا سعيدا؟.

– طبعا. صدقني، كم أنا سعيد لرؤيتك. فأنا لم أرك منذ وقت طويل.

قال طاهر: معذرة. فقد كنت في السجن، ومن الصعب عليّ ارتياد الصالونات والمقاهي.

بدا وجه طاهر شاحبا غائر العينين من الحرمان والمغامرات التي لا حصر لها، مما يدل على أنه منبوذ تماما، ينعكس في عينيه تحجر شديد يميز المناضلين الذين ينشدون مثالية بعيدة. رمق كريم بكل احتقار، وأحس فيه بشيء غامض، شيء من التعاطف لزميل خان القضية. لكنه ظل دائما حاضرا في الذاكرة. بدا له أن كريم ينظر إليه بعين الاتهام. بنظرة قاض لا يرحم. شخص ماهر ساحر ومدهش له مثل ظروفه. في كل الفصول ، كان يرتدي بدلة قديمة رمادية اللون، مرتقة. وقميص بياقة منشاة ورابطة عنق داكنة. هذا الزي الخشن لموظف صغير يتناقض مع وجهه الثوري . كأنه شخصان متراكبان. كان مبدأ طاهر أن على الثوري الحقيقي أن يرتدي ملابسه بسرعة ، لذا انكر السلوك البوهيمي لبعض الزملاء. كان دائم الشجار مع كريم لان هذا لايرتدي رابطة عنق.

اربكته ثقة زميله. لم يعرف كريم ماذا يقول ؟ فالسجن لم يغير «طاهر» كثيرا فهو يأخذ كل شيء بجدية. أحس بالذنب لانه هنا. يبدو مزدهرا، أمام هذا الخارج من أعماق الزنزانة الذي يتهمه ويلعنه. رغما عنه. لم يكف عن النظر الى اللفافة التي يمسكها طاهر في يده. انه خجل من جبنه، ولكنه أقوى منه. ارتعد وهو يفكر في القنبلة . لاحظ طاهر قلقه وهو يطلق تنهيدة متشنجة فبدا كأنه وجد شيئا يبعث على التسلية .

قال بكل جمود: لاتقلق. فهذه اللفافة ليست قنبلة. انها أحذية قديمة أحملها الى «الجزمجي»، لقد انفصل الكعب تماما. وانت ترى أنني مضطر للمشي حافيا .

احتج كريم حائرا: كيف لك أن تعتقد ذلك؟

ومع ذلك أخفض عينيه كي يتأكد من حسن نية طاهر ، رأى زميله حافيا وظل لحظة مذهولا لا يستطيع أن يخلص عينيه من قدمي طاهر، إن ياقته بالية كما أنه حافي القدمين ، ياالها من فكرة ساخرة ! تردد كريم بين الضحك والعزاء .

– أنا آسف حقا يا أخى طاهر .

– لا تأسف على شيء، الأمر لايهم، لقد عانيت من كافة المآسي. ولست في حاجة لأن أعيش في شقة تقع على السطح. أحب القصور كي أدمرها .

هتف كريم: إنها غرفة البواب.

ثم أكمل بصوت خفيض: كيف عرفت أين اسكن؟ بشرفي انت تتجسس عليّ..

ابتسم طاهر بسخرية. وكأن كريم طفل ساذج وعليه أن يعرفه. قال

– نحن نعرف كل شيء عنك. أنت تتصور نفسك ذكيا. ولكننا نعرف كل شيء مما تدبرون أنت وزملاؤك. هل تعرف أن الشرطة ألصقت فينا عبثكم. لانستطيع أن نتحمل طويلا. ولهذا أردت أن أتحدث اليك.

كان يهمس كمؤامر. رغم أن الكورنيش خال من كل أنفاس البشر. سأل كريم وقد أثاره هذا الهمس:

– أي عبث؟

– هذه الإعلانات التي تتملقون فيها المحافظ، هل تعتقد أنني لا أعرف مصدرها؟

– فيم تزعجك؟

– انها تجعلنا أغبياء أمام الشرطة. ولا أحب هذا . فلسنا مهرجين .

انتابت طاهر فكرة أن الشرطة تعامله كشخص هزلي ينتهج اساليب بدائية لقلب السلطة. فهو يحس بسعادته كثوري، حين تلقى عليه مثل هذه الاتهامات. بكل ماضيه كمناضل، وكل هذه السنوات في السجن، تخيل سقوطه بين ايدي الشرطة فملأه الغضب . وزاد ألمه الداخلي بالشجن، من زميل النضال القديم. هذا الخائن الذي يوجه له مثل هذه الإهانة. قال كريم:

– لاتنفعل. فالشرطة لاتشك فيك قط. إنهم يعرفونك بما فيه الكفاية ويدركون أنك من الجادين.

وأضاف كأنه يكلم نفسه: مثلهم.

سأل طاهر بحدة ماذا تعني؟

– أعني أنك بعيد عن الشبهات. فالشرطة تعرف أن الثوريين من طرازك لايرتكبون هذا، أنت لاتعرف أن الأمور تغيرت ، إنهم فقط يثرثرون معك أثناء الاستجواب. ثم إن الحكومة تمارس أساليب البوليس السياسي التي يستخدمها أيضا الطبيب النفسي، إنهم يعرفون كل شيء عنك، ويعلمون أنك لايمكن أن تغير اساليبك الى هذا الحد.

قال طاهر بنبرة مريرة في صوته: على كل، فقد تغيرت.

ثم راحا يتكئان على السور أمام البحر، صامتين، وقد ضاعت النظرة في هوة عميقة، سوداء تمتد أمامهما، أحس كريم بالارتياح، لكن طاهرشعر بالاحباط، وارتقاب الهزيمة أو الموت، فلم يستطع أن يعرف أي سكينة، استدار ببطء نحو كريم، كأنه ينتظر منه حركة أو كلمة ندم أو أسف، لقد جرب كآبة الارهابي الملتزم بعمليته والمضطر لاستكمال واجبه الدموي، ورغم المحبة والمودة التى تربطه بضحيته. فإن قلبه يدمى، أراد أن يتوسل الى كريم كي يتخل عن جنونه ويعود الى مثاليته السابقة، أغرقت الشفافية وجهه النحيل. وكأنه يسكب الدموع.

هذه النظرة الملقاة عليه أوخزت كريم كأنها سهم ، فقلبه ايضا يدمى. أراد أن يحدث ذلك لطاهر ليذكره بالأوقات العصيبة، التي فاحت بعفونة البؤس والمعاناة، لقد مارس السلام مع هذا العالم البشع الكريه. إنه لايريد أن يغير شيئا. فهو يأخذه على علاته، بعرجه وعميانه كشخص في حاجة ماسة للحب، لم يؤمن كثيرا بمأساة الشعب. هل كان ثريا؟ لقد كان الاكثر فقرا بين الفقراء. ومع ذلك فهو سعيد، راح يناضل فجأة ضد هذا الشبح الفظ القادم من الماضي كي ينتزع منه بهجته. وقال بلهجة مليئة بالاستفزاز والكبرياء :

– أجل. لقد تغيرت. وأهنيء نفسي على ذلك.

استند طاهر عليه. وقد تشبث ببطن سترته، ثم اتكأ على السور:

– هل تعرف أن زملاء نا مسجونون ويتعذبون، بينما أنت تتسلى بتعليق الصور على جدران المدينة تمدح فيها الجلاد.

- اسمع ياطاهر. بعد كل شيء أنا لم أخنك وما أفعله لايمكن قط أن تفهمه. ولكن اعرف أنها الوسيلة الوحيدة لمحاربة المحافظ.

ضحك طاهر ساخرا : يالها من طريقة غريبة ! اعرف استاذك . لقد سمعت كلاما عنه. فهو من نفس جنس المحافظ، رجل ثرى يعيش كالامراء. كيف يمكن أن يفكر في ألم الشعب؟

هتف كريم: لاتمس هذا الرجل. فأنا أحبه. اسمعني، وصدقني. لن انفصل عنه قط. ولو طلب حياتي ، فلن اتردد في الموت من أجله.

أحس طاهر أنه قد أفرغ دمه. فقد هزه عنف هذه المشاعر كأنها سبة موجهة إليه، إنه يحب الشعب، ولأن كريم جزء من هذا الشعب، فقد احتفظ نحوه بعواطفه وثقته، وغفر له دناءته، وقد تمنى دائما ألا يكون انفصالهما سوى حدث عابر، وأن يعود كريم طواعية الى الثورة، ولكن هاهو يراه بعيدا عنه، بمثاليته التى يحارب ويعانى من أجلها إنه يراه مرتبكا فى عالم جديد تماما، حيث هو، طاهر، غير معجب به، استبدت به الغيرة، وانفتح في قلبه جرح غائر. بدا له الليل مسمما، بلا نجوم ولا بحر ولا عقد اللؤلؤ الذى ينساب من المصابيح ذات الأقواس اللامعة، كل هذا لم يستطع أن ينقذه من هذا الموت المقبض، دام الامر لحظة، ثم جاءت حقيقة الثورة لتنتزعه من آلامه، وقد دفعه فضول مريض أن يقترب من الرجل الذى يضعه كريم - بكبريائه الجهنمى - فى مكانة أعلى من الشعب المقهور، فإذا تمكن أن يكلمه لحظة فى حضور كريم، فسوف يتمكن من تدمير هذه الهالة التى فى مخيلته،، سوف يكشف له الغرور، والعدم، ومكر الغواية التى تتسم به هذه الروح الخادعة، المنغمسة في النعيم، إن له تأثير الساحر في السيرك ، ربما سيفهم كريم آنذاك كم هو مخدوع، وأن كل هذه المحاولات الغبية لقلب السلطة مصيرها الفشل، وسيعود الى مبادئه الكريمة لمعركة حقيقية. هذه المغامرة تستبد به بجنون، ومن ناحية أخرى فهى ضرورية له، فهو فى حاجة الى كريم من أجل مهمة قادمة - من أجل خدمة الثورة. لقد جرب طاهر كافة محاولات الاغواء، وعليه أن يستخدم حيلة أكثر مرونة لايقاظ ضميره الثورى لدى بعض العمال العاطلين. قال بهدوء يثير الدهشة :

– أريدك أن تفعل شيئا ما من أجلي.

– ماذا إذن؟

– حسن ، أريد مقابلة هذا الرجل الذى تحبه كثيرا. وبالعيش والملح الذى أكلناه سويا ، اقسم أن توصلني بهذا الرجل، أحب أن أتحدث معه.

حاول كريم أن يبتسم، تجهم وجهه فجأة. فقد بدا هذا الكلب وقداسعده بشكل ملحوظ، قال:

– بكل سرور، أنا واثق أنه يحب أن يتعرف عليك. أنت تعرف أنه متعدد الأفكار. ويهتم بكافة الأنشطة الإنسانية.

قال طاهر وقد فوجيء بهذه البساطة، كأنه وقع فى فخ: أنا سعيد بالتعرف عليه ، هل يمكن أن تصحبني اليه هذا المساء ؟

– كما تشاء، الآن أنا فى طريقي لمقابلته. ياعزيزى طاهر. أتمنى أن نعود من جديد معا، فأنا لم أكف عن التفكير فيك.

فى هذه اللحظة، لاح شبح شرطي يمشي بخطى وئيدة بطول السور. وقف أمامهما، تجمد الشابان من المفاجأة ، فهذا ممثل النظام يبدو كغول جائع لمهمة هامة على الكورنيش، انتظر فى صمت أن يكشف لهما طبيعة التهمة التى يوجهها لهما .

زمجر الشرطي: التجمعات ممنوعة. هيا، انتشرا..

قال كريم مفتونا بهذا النزيل الطارىء: لكننا لسنا سوى اثنين.

رد الشرطي: اثنان أو مائة إنه نفس الشئ. هيا انتشرا.

وتابع سيره بطول السور فى صمت. هتف كريم:

– هل سمعت يا ابن القاهرة؟

قال طاهر: إنه شخص مسكين ينفذ الأوامر، إنها ليست غلطته. علينا أن نعلمه.

– بشرفي أنت مجنون. هل تعتقد أنني سأعيش آلاف السنين. ليس أمامي سوى بضع سنوات، وتريدني أن اقضي وقتي فى أن نعلم هذا القاتل النضال المسلح.

هز طاهر رأسه بحزن، كشخص لاينتظر فهما من مخاطبه . عليه أن يسرع الآن لرؤية هيكل وأن يواجهه بما يفكر فيه. قال،

– حسن، هيا، ولكن يجب أن أرتق الحذاء عند «الجزمجي».

– في مثل هذه الساعة لاتوجد محلات تصليح أحذية مفتوحة.

– ماذا تعتقد. أنا لا ألبس حذاء من عند «جزمجي» رأسمالي..إنه زميل يحرس محلا مفتوحا طيلة الليل. وأنا على موعد معه. وهو ليس بعيدا عن هنا .. تعال معي.

هز كريم رأسه بالموافقة ، ثم وضع ذراعه تحت ذراع طاهر وراحا يضربان الطريق. عبرا الشارع وغرقا في أعماق المدينة، تاركين الكورنيش خلفهما.

وبعد التحيات، جلس الثلاثة في صالون هيكل، وقد التزموا الصمت. بينما راح «سرى» الخادم يقدم المشروبات المرطبة وكأنه يمشى أثناء النوم منذ أمد طويل. لم يتوقف «سرى» عن القيام بواجبه. ولكن أياً منهم لم ينتبه إليه. فأهمية هذا اللقاء وغرابته تسمح للمرء بالشرود. انتهى «سرى» بوضع ثلاث زجاجات من مشروب الورد فوق المائدة الصغيرة المنخفضة، خرج من الغرفة، ولم يقطع الصمت شيء.

راح هيكل يتأمل طاهر بفضول عالم أثرى يدقق في قطعة نادرة. فهو ليس حزينا لهذه الزيارة، طالما أنها تتيح له الفرصة أن يدرس زميل كريم القديم عن قرب. إنه أكثر ثوار المدينة خطرا، شعر أنه متأهب للانقضاض، ولكنه بدا بالغ الادب، ولا يجرؤ على قطع الصمت بكلمات لئيمة. جلس على طرف المقعد عبوسا وخجلا، لأنه استقبل إثنين من «الغلابة». كانت النظرات التى القاها على كريم بليغة المعنى ، وكأنه يعتبره مسئولا عن ذلك الموقف الصعب. انتظر هيكل بفارغ الصبر أن يعرض عليه شكواه. فكر في أن طاهر قد وصل به الامر أن يأتى لبيته. وأنه جاد في رؤيته يعمل، ترى أى برهان عليه أن يقدمه له. لمواجهة مفاهيم غريبة من شخص يختلف عنه شكلا ومضمونا. راح هيكل يئن من الشفقة. فالنضال أمر غير شرعي، ترى هل جاء هذا الرجل الكهفى المتعصب للعنف. ليثير استفزازه وماهى الدوافع التى وراءه ؟ هل يتملكه احساس بالضياع؟ وهل يجب أن يكون

الثوري مصابا بالمرارة واللزوجة، فلا يستطيع مقاومة جاذبية السخرية ؟ بدت له حالة الرقة التي اكتست زائره، وكأن طاهر قد جاء له يعلن حبه وليس لعناته.

كان في اعماق طاهر صخب واحتجاج، ونوع من النفور، تماسك في نفسه وبدا أشبه برجل تحاصره الفئران. فزميله «الجزمجي» قد أعاره صندلا كان يملكه زبون ميت، زادت عصبيته وهو يحرك ابهامه عبر رقائق الجلد. لم يعرف السبيل لبداية الحديث، إنه ينتظر لطف وجاذبية مضيفه، الذي يرتدي روبا قرمزيا، وقد بدا وراء المائدة كشخص من علية القوم يستقبل زائراً تافها. الشيء البشع حقا أن طاهر يعي فقره. انها المرة الأولى في حياته التي يحس بازدراء المأساة. أحس بنفسه ضائعا في الصالون البرجوازي ذي الاثاث اللامع، والمقاعد الذهبية المكسوة بالقطيفة الحمراء التي بدت له بشعة، هو الذي قضى عمره في الاكواخ والسجون - يرى الآن الثراء أمام عينيه - تمرد طاهر ضد الثراء وليس ضد الرجل الذي شرفه في منزله، لان مفاهيم هيكل، مشوشة. ويجب أن يبلغه أنه لن يقترب قط من رجل من طرازه. فهو ليس جلادا ولا عبدا. ولكنه يناضل السلطة بطريقته، طريقة مشينة يدفع فيها دمائه ثمنا لتمرده. لم يفهم طاهر التمرد دون جرعة ما من الحقد، لم يتذرع بالصبر وهو يكشف في بيت هيكل كافة ما به من أسباب الغضب الذي يكنه لكل المخلوقات الظالمة. بدأ يتصرف بغباء تجاه خصمه، وكأنه يتمتع بإغاظة بساطة وهدوء طاهر، أحس بإهانة لاتغتفر لنضاله الأبدي الذي لا جدوى له. ربما أن هذا كله ليس سوى خدعة. يمكنه أن يبحث عما يغويه، ويجذبه لعالمه المائع والهش، لم يترك نفسه تفعل، فحضوره هنا بهدف إزالة مخاوفه من هذا الأرستقراطي ذي السحر الخفي لعله ينقذ كريم من الدمار الذي يهزه. بدأ

- هيكل أفندي ؟ لقد أتيت ..

قاطعه هيكل بصوت رقيق وهو يرفع يده بحركة هادئة: اعرف لماذا جئت هل يمكن أن تنتظر. دعني أولا أعبر لك عن سروري لحضورك.

رد طاهر: لقد أثلجتني طيبتك، ولكن معذرة، ليس هذا وقت المجاملات. جئت لأتحدث معك، لقد قلت لهذا المرتد - وأشار الى كريم بإصبعه - عم أراه في نشاطك، فهو يتعارض مع شرفنا الثوري، لأن الشرطة تلصقه بنا. أريد أن أعرف

بالضبط ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

ابتسم هيكل بأدب جم أمام هذا الهجوم من شخص وغد ساذج. لقد راح طاهر يدافع عن شرفه كثورى. كل ما ينشده ألا يصل الأمر إلى الشرطة. أى ثورة وأى هياج فى الصوت يتجاوزان شرفه ، تماسك وهو يبدى احتراما لجلاده. أى موقف ساخر. ومع ذلك لايستطيع أن يحطم الدائرة التى حبسته فيها السلطة الدموية. إنه يمارس لعبة الشرف والأخلاق مثلما علموه أن يفعل. ولم يخرج منها قط. فهو ليس سوى سجين زنزانة. لأن الموضوعات التى أسس عليها نشاطه كانت هى نفسها التى يستخدمها الخصم. خشى هيكل ألا يرى ضيفه قسوة عينيه. فقد يشجع هذا ضيفه. قال وهو يكسب وجهه ملامح المفكر

– حسنا تكلمت عن اللعبة. لأننا نلعب جميعا ، أليس كذلك ياطاهر افندى؟ أنا آسف بشدة أن لعبتى لم تعجبك. وسببت لك الملل. لكل إنسان الحق أن يعبر عن تمرده باسلوبه. أما اسلوبى فهو لم يتغير. وهو ألا أقترب من الأبرياء.

أطلق طاهر كلاماته باحتقاء . هذا لعب عيال. أنا لا أشك قط فى ذكائك، ياهيكل افندى ، لكن سامحنى أن أخبرك أنك تتسلى بينما الشعب واقع تحت قهر. لايجب النضال بهذا الأسلوب. يجب أن ترد على العنف بالعنف. ولا يهمنى الابرياء.

رد هيكل: العنف لايتناسب مع هذا العالم الهزلى – لأن هذا هو ما يبحث عنه الطغاة. نحن لا نأخذ الامر بعين الجد، لانرد على عنفهم بالعنف. ونكشف لهم اننا نعاملهم بجدية. نؤمن بعدالتهم وسلطتهم. ونساهم فى تعزيز مكانتهم. أما نحن فنساهم فى تعزيز خسارتهم.

– أنا لا أؤمن بهذا الاسلوب، وادعاءاتك لاتستند على قاعدة تاريخية. كل هذا ليس سوى قصصاً من الملهاة الماسخة.

– من الأساليب الاكثر سهولة أن تتبع الطغاة فى أرضهم. وتصبح هزليا إكثر منهم. الى حيث يذهبون أذهب أبعد منهم. وسوف ادفعهم أن يجربوا السخرية . كى احقق فرحتى الكبرى.

صاح طاهر: ولكن هناك الشعب المسكين. لقد نسيت الشعب الفقير. إنه لايضحك.

– علمه كيف يضحك ياطاهر افندي ؟ هذا سبب نبيل.

قال طاهر بصوت جاف: لا أعرف، أنا نفسي لم أتعلم الضحك، ولا أريد أن أتعمله،

أثار هذا الاعتراف الحنين، بدا الاعتراف أشبه بحب مستحيل ومؤلم، أحس هيكل بانهيار سعادته، حقا إن طاهر يجهل الضحك، وليس عليه سوى أن ينظر اليه كي يقتنع، لقد تعصب تماما لفكرة الكفاح المسلح مستهلكا وقته في تدبير المؤامرات، تتسلط عليه مأساة الشعب، يبدو مخلصا للأسى، إنه الموظف الأمثل للثورة، لايعير اهتماما لاى شيء خارج الدور الذى يؤديه ، ولا يؤمن بالنقد القدري، تحوطه أنانية مضاعفة، يطول انتظارها تتضاعف اعدادها في مجموعات ، ثم تظهر من جديد وتكشف نفسها ، قال هيكل:

– إذن، أخشى ألا تسخرون من الطغاة، يجب على كل واحد منكم أن يضحك من الاخر.

– أي حدس هذا ياهيكل افندي، ألم تنتابك قط فكرة امكانية النضال ضد الطغاة؟.

– إنه طاغية ميت، طاغية يثير السخرية ، ويثير المتعة.

عقد طاهر يديه ، وهو يتحرك فوق مقعده، كأنه فريسة لغمزات العار، إنه واثق أن هيكل يستعمل لغة مجنونة كثيرة التناقض،، بهدف أن يخذله، لقد جرؤ أن يكلمه عن البهجة والمتعة، وهو الذى لم يعرف قط سوى آلام الجوع، لقد كشف أخيرا عن وجهه الحقيقي، انسلخ خجل طاهر كاشفا عن الفكرةالمريرة والغير محتملة، التي دفعت كريم للامتثال لمكر هذا الرجل المقنع في صورة داعية للسلم، فكريم يملك قلبا كريما ، هل تدنى الى حد أن يصبح شريكا لرجل مخادع؟ رمق طاهر زميله القديم بنظرة زائغة، وكأنه يأمل منه المساعدة، في الحقيقة لايمكن لاى خيانة أن تفسد الأمر ، لكن كريم لم يبد قط واعيا لموقفه المربك ، راح يلتقط أنفاسه، ارتسمت ابتسامة على شفتيه، نظر الى هيكل الذى بدت كل كلمة من كلماته كأنها حكمة خارجة من فم خطيب، بدت التبعية شاملة، وأحس طاهر بالحزن:

- لم تقل شيئا أيها الخائن.

استدار كريم نحو زميله، ملدوغا، خارجا من المتعة التي اغرقته فيها إجابة هيكل. انفجر:

- ماذا يمكن أن أقول لك؟ أنا متفق في كل شيء مع هيكل، وما قاله يمكن لطفل أن يفهمه. ولكن أنت أصم. أنت تحمل شرفك الثوري كامرأة حامل فخورة ببطنها . بشرفي، أنت تؤلمني.

- هكذا نمارس الخيانة، نسب مانعبده ، الكلب أحسن منك.

تدخل هيكل: ياطاهر افندي، لاتظلم صديقي كريم. فربما أن لديه شيئا آخر الآن. من حقه أن يتغير، لاتنس أن الافكار تتطور.

علق طاهر. ولكنه لا يفكر في شيء بالمرة، إنه متملق، وأنا اعرفه، يتصرف كأنه يحب الشعب كي يحس بمتعة السخرية منه. لقد خدعه وخدعني في نفس الوقت.

قال هيكل: لاتكن ظالما . فكريم لم يخدع أحدا . فهذا الامر يتطلب طموحا كبيرا . وليس لكريم أي طموح. إنه فقطـيحب الحياة.

- هذا مايزعمه. لو كنت مكانك لارتبت فيه. هل تعرف ياهيكل افندي أنه اعترف لي أنه مستعد أن يفديك بحياته لو سألته ذلك؟ هذه مبالغة أليس كذلك؟ ومع ذلك يبدو ليّ مخلصا . لقد كان كذلك عندما أراد أن يهب الثورة حياته.

صاح كريم: ليس نفس الشيء. أنت تخلط الأوراق أيها البائس. ليس حبي لهيكل بهدف سياسي، أنا لا أحبه كي أخلصه من ضغط عليه. فهو حر. ليس عليك سوى أن تمارس حبك لشخص ينشر السعادة لمستقبل الشعب المسكين.

سأل طاهر وهو ينظر الى هيكل بطريقة ملتوية: أريد أن أعرف أي رجل أنت كي تلهم المشاعر لمثل هذا القميء؟

- أنا رجل بسيط ياطاهر أفندي، فقط أنقل آرائي للآخرين عن الشرف والكرامة. انتظر شيئا آخر ممن هم على شاكلتي. صديقي كريم حر في أن يغير غدا طريقته في التفكير. وأنا لا ألومه في ذلك. لأنه مهمل فعلا، لن يصبح مثيرا للملل وهذا شيء مهم.

- ماهو أهم شيء في الانسان حسب رأيك؟

– الكمال الرائع الذى أحسه معه، وخاصة فى أكثر الأشياء بساطة فى الكون، هذه أشياء تفرحنى، وهكذا تعرفت على ثراء الحب المحبوس داخل الإنسان.

يا له من أسلوب بشع وكريه، فهذا الرجل مازال يكلمه عن البهجة، هل يؤمن بها حقا؟ ألا يوجد بالنسبة له شىء سواها فوق الأرض؟ هذه الأرض الخربة، التى أحرقها البشر ألف مرة. كيف يجدها مكانا للحب والسلام؟ يجب أن يكون وغدا كى يجامل هؤلاء المصابين بالهذيان ومهاويس السعادة. مع ذلك فإن «هيكل» ليس وغدا ولا مجنونا. إنه يريد أن يسلى الشعب ويعلمه الضحك من الطغاة. من السهل أن تقول هذا. ولكن الشعب أمامه أشياء أخرى عليه أن يتعلمها. وجسامة مهمته تجعله مريضا بالأمل.

عامله هيكل برقة، فأحس بالسعادة فى أعماقه. ولم يكن هذا النموذج الثورى مصدر تفاهة. إنه بالتأكيد محل تقدير. هذه السترة البالية والياقة المنشاة ورابطة العنق المشدودة حتى طرفها. تعكس مواقفه تجاه بهرجة مجتمع يريد أن يلحق به الضرر. إنه ثورى، لكن بكرامة، يرتدى نفس زى الخصم ومستعد أن يأخذ مكانه. أى نموذج رائع فى هذا العصر. أراد هيكل أن يتبناه. وأن يحتفظ به على مقربة منه. كنموذج للسخرية، ولكنه كان حلما مهووسا. فهو ليس ثريا بالقدر الكافى كى يشترى شيئا بهذه القيمة الغالية.

بدا له أن الصمت، وهذا المنظور الذى يحمله، يدفعان طاهر للتماسك. قال محطما الصمت.

– هذه الحقائق التى تتكلم عنها ياهيكل أفندى صادرة عن وغد. هل توافق أن يكون الوغد مصدر بهجة؟

رد هيكل: الأوغاد هم من يقتلون البهجة حولهم، ويمكنهم أن يتصرفوا باستخفاف.إنهم يثيرون عصبيتى. لكنك لست من هذا النوع من البشر، يا طاهر افندى. أنا أعرف كافة طبائع البشر. لماذا تحرص على الاحتفاظ بهذا القناع الذى يجعلك تعانى؟ أنا واثق أنك يمكن أن تغدو مازحا وتافها. وأحب أن أراك هكذا يوما.

ارتبكت أفكار طاهر، وأحس أن هذه الكلمات المعسولة تبدو مثيرة للرعب فهيكل يعامله كرجل تافه ، وهذه أكبر إهانة يمكن أن يوجهها لكبرياء مناضل . أدار وجهه وكأنه يخفي شحوبه. أحس أن عليه أن يسرع لملاحقة العالم القلق الذى ينتظره في الخارج، على الأقل فهناك يمكنه أن يحس بالقهر. ولكنه لايحس أبدا بالتعاسة.

رفع هيكل كوب العصير الدافيء فوق المائدة المنخفضة أمامهما، وقال موجها كلامه إلى ضيفه:

— في صحتك ياطاهر أفندى.

بدا طاهر وكأنه لم يفهم .. وبشكل آلي رفع كوبه. وأراد أن يضعه على شفتيه. لكنه تردد لحظة. حطمه فجأة فوق الأرض، وقد بدا عليه الغيظ والغضب، وكأن هذه الحركة قد أعادت له كرامته.

انزعج كريم من تصرف زميله الغريب، التصق بمقعده يترقب رد فعل هيكل، ولكن هذا ظل ساكنا، ثابتا إزاء استفزاز مضيفه وقد اصطبغ وجهه بالحمرة. بدا وكأنه يعامل طاهر بكافة أنواع الأدب.

دخل «سرى» الخادم الغرفة محدثا قرقعة دون أن ينبث بكلمة، وراح يحمل بقايا الزجاج. لم يتكلم أحد. بدا الجميع كأنهم ينتظرون أن ينتهى من تنظيف الأرض، وعندما خرج الخادم بعد قليل. قام طاهر ونظر إلى هيكل برهة. ثم هز رأسه وبكل تثاقل اتجه نحو الباب.

غادر هيكل الأريكة وتبعه ، ولبضع ثوان وقفا مترددين عند عتبة الباب. ثم قال هيكل:

— لم يكن هذا الشراب مسموما ياطاهر افندى. إنه عربون الصداقة.

لم يرد طاهر، فجأة أمسكه هيكل من كتفه، وراح يضمه إلى صدره:

— أنت رجل شجاع يا أخي طاهر.، وخسارة أن تكون ضائعا .

سأل طاهر بصوت أشبه بصرخة مخنوقة. ضائع من أجل من؟

رد هيكل: من أجلي أنا وحدى. إذهب الآن، تصحبك السلامة .

ثم استدار وواجه كريم الذى كان ينظر إليه في صمت رهيب.

(١١)

راحت الصغيرة تأكل المثلجات وهي تنظر إلى هيكل من «تحت لتحت». لا توجد أى معان خفية فى هذه النظرة. ولكنه حياء من أعلى الدرجات. بدت كأنها امرأة واعية تماما لفرجها. هزت ملفعتها طويلا وهى تتحرك بنوع من الشراهة الأثيرية. تصرف هيكل وكأنه لايراها، فغريزة الإغراء تدفعه أن يخفى نقاط ضعفه حتى ولو مع طفلة صغيرة، تبدو في الثامنة من العمر وتضع شريطا أخضر على شعرها المجدول بضفيرة واحدة، فوق ظهرها تبدو بالغة الجمال. ولكنه ليس هذا الجمال الكريه لأطفال أصحاء يأكلون جيدا ويكرهه هيكل بشدة. إنها ناعمة الملامح، وتبدو بعض علامات الحزن فوق ظهرها فى عينيها مؤكدة أن هذا العالم يؤلمها. لذا حاول هيكل أن يهتم بها. هذه الكآبة الطفولية التى تكاد تصل إلى حد اليأس. كانت فى صحبة أمها. أقرب إلى النمرة الشرسة. يرتسم الغباء على وجهها، رغم مكانتها الاجتماعية، وضمت حول ذراعيها سواراً ثقيلاً من ذهب. عندما راحت تتكلم إلى ابنتها، أحس هيكل أنها تكاد تنكفيء على نفسها. وكأنها خجلة إنهم يشركونها مع هذه المخلوقة الجالسة أمامها. شكت الأم ظاهريا من هذه المنافسة، لأن نبرات صوتها كانت موصومة بحقد أبويها تجاه ذريتها المتمردة، وكأنها تود أن تنتمى إلى جنس آخر غير جنس ذويها، تمنى هيكل لو تموت هذه الأم أو تختفى فى الفضاء، يا للأوباش المرعبين. إنه يعانى من أجل الصغيرة بسبب نظرتها المثيرة، لذا بدأ يتطلع إليها.

كان هناك القليل من الزبائن فى صالة الشاى التى تقع بأحد أحياء المدينة الراقية، إنه على موعد مع سعاد، وفضلا عن الصغيرة وأمها، لم يكن هناك سوى

مائدتين مشغولتين بنساء يتناولن الكعك ويتكلمن بصوت خفيض. بدا هيكل مغموما لشراهة المرأتين، ثم تابع حواره المدهش مع الصغيرة. أحس هيكل أنه مشغول بهما، أراد أن يعرف شيئا عن هذا الخيال الطفولي، ماذا عليه أن يفترض في الأمر؟ أحس أنه اكتفى بإخفاء قلقه ، فغير أسلوبه، وراح يحدق فيها بشدة، أخفضت الفتاة عينيها، وقد احمر خداها. ملأ هذا الروغان «هيكل» بالراحة، وأصابه الأنين بفكرة مجنونة اعتملت فيه، أن يمسك الفتاة من يدها، ويذهب بها تحت بصر أمها الخائفة، وهو واثق أنها سوف تتبعه.

نظرت إليه الصغيرة هذه المرة بعينين حزينتين وكأنها سوف تسكب الدمع. وقد شككت في قدرته على إنقاذها، وأن ينتزعها من أمها المتوحشة؟ بدا لهيكل أنها تنتظر منه بادرة أن يقوم وتتبعه. ولكنه أدرك أنه يهذي، لم يتمكن قط أن يرضي هذه الرغبة الجامحة التي تستبد به في كل مرة يرى طفلا في صحبة أبوين غير جديرين به. ابتسم للفتاة وكأنه يعلن أسفه. شيء غريب. يبدو أنها فهمت، فقد هزت رأسها فجأة برقة. وأحس هيكل بقلبه يغوص في صدره. فأغلق عينيه كي يفلت من هذه الرائعة المغموسة بالبراءة.

وقفت سعاد فجأة أمامه. لم يعرفها هيكل لتوه ، فهناك تغيير واضح عليها ، كانت تضع شعرا مستعارا فوق رأسها، وقد سودت عينيها بالكحل. بدت شفتاها شاحبتين، إنها تتصرف كامرأة. وقد اكتست ملامحها بجمود غير متوقع. إنه تنكر حقيقي. لاحظ هيكل تفاصيل أخرى أكثر دهشة من كل هذه «المسكرة» ، فالفتاة قد وضعت قرطا في أذنها من الحجارة الكريمة الكبيرة. غالية الثمن. لم يعلق بكلمة ، لأن ذلك بلا شك ماكان ينتظره .

جلست أمامه، وللحظة، تصرفت بكل سخرية، كشخص يضع قناعا ويقوم بحركات إيمائية من أجل التعرف عليه. احتفظ هيكل بمظهره البارد. بدا كأنه لم ينتبه إلى هذه التغيرات، صُدمت بهذا الفضول الضائع، ونظرت حولها على أمل أن تعجب الحاضرين، ولكن قلة الزبائن خيبت أملها، وعادت نظرتها إلى الشاب ولم تتردد كثيرا في أن تسأله:

- كيف تجدني؟

قال هيكل: رائعة، أنت تذكرينني بجدتي.

بدت الفتاة الصغيرة مستاءة مصدومة، ولكن هذا لم يتفق مع نمط جمالها الجديد. لقد فهمت لتوها النظرة الباردة التي ألقاها هيكل عليها؛ فقد تجاوزت برغبتها كافة الحدود التي تفصلها عن الطفولة للأبد، إنها الآن امرأة. تعرف أن ذلك تجاوز كل رياء ونفاق بني جنسها.

كفت فجأة عن الاستياء، وقالت بلهجة امرأة أنضج من سنها:

- يجب أن تكون لطيفا معي لأنني جئت لك بخبر مدهش.

- أحكي، فأنا أسمعك.

- حسن. لقد حدث اليوم أن جاء المحافظ لرؤية أبي. احتدمت بينهما مشاجرة حامية، سمعت كل شيء فالمحافظ لايريد أن يصدق أن أبي لا علاقة له بموضوع التمثال، واعتبره مسئولا عن موقفه.

قال هيكل: من الحق أن يغضب هذا الرجل، لعله كان يؤنبه.

- ولسبب عظيم أنت لم تعرفه .. فالمحافظ لن يستمر أكثر من أسبوع، لقد أجبره الوزير أن يقدم استقالته. هل أنت مبسوط؟

راح هيكل يفكر في الخبر. فوجيء أنه لم يشعر بأية فرحة عارمة. أحس أن فراغا سيتولد لديه باختفاء المحافظ، وكأنهم قد نزعوا عنه لعبته التي يعرف وحده كيف يديرها ويتمتع باستخدامها. فقد كان المحافظ بالنسبة له طيلة الوقت مصدرا لاينضب من السعادة فوق هذه الأرض. يا الله، سوف يخسر النبع الذي يغذي روحه الانتقادية، خشي هيكل أن يحل مكانه موظف تافه، طاغية، قصير الأمد، ليست لديه خيالات مريضة كسابقه، لأن قدر الطغاة يثير عصبيته أكبر من جرائمهم. ماذا يمكن أن يفعل في زمن تافه يسوده الملل؟ استبد الحزن بهيكل لأن عليه أن يعتمد على المصادفة فيما يتعلق بالمستقبل.

نظرت إليه سعاد بعينين زائغتين كانت تنتظر بركانا من السعادة، لم تفهم صمته:

– لم تقل شيئا.

– إنه خبر ممتاز، معذرة، أنت تستحقين مكافأة.

وأمسك يدها من أسفل المائدة وقبلها برقة، وهنا رأى في أصبعها خاتما من الياقوت النقي، حجر كريم مدهش، سقطت عليه عيناه وكأنه إشراقة مفاجئة في الظلمات، لم يبد أية دهشة، وضع يد الفتاة فوق المائدة. بدا الخاتم شيئا حيا تأملته سعاد بنظرة مرعبة. قالت دون أن تبعد عينيها عن الحجر اللامع:

– ألست مندهشا لرؤيتي بهذا الخاتم؟

– لماذا اندهش؟

– آه، أعرف لا شيء يدهشك، فأنت قليل الاهتمام بي، لذا فأنا بالغة التعاسة

– انت تعيسة، مع كل هذه الجواهر.

– لم أخبرك بكل شيء في مسألة المحافظ، فأنا الضحية.

– كيف هذا؟

– حسن، لقد ارتاب أبي في أمري فيما يتعلق بالشيك، لقد ألمح بذلك في الصحيفة التي أرسلته لها، ولم يكاشفني مباشرة، ومع ذلك لم يكف عن التلميح بنواياي إزائه.

– هل يجعلك هذا تعيسة؟

– لا، ولكنه الآن يريد أن يتخلص مني، لا يريد أن يراني ألف حوله، ويصر أن يزوجني، ألا ترى أنه عقاب شديد؟

– لكن، ماذا تفعل المجوهرات في ذلك؟

– لقد فهمت، فأنا لن أتركه يفعل، أجبته إنني لا أريد الزواج فهذا يورطني في المزيد من المتاعب، وكي يغريني، أعطاني مجوهرات المرحومة أمي، التي يحتفظ لي بها في خزينته حتى أكبر، ولكنه قرر ابتداء من الآن، إنني يجب أن أتصرف كامرأة في سن الزواج، يريدأن يكون صهره القادم أهلا لكل الثروة التي أحملهاله.

– إنه على حق، فهو يعرف نوع الرجال الذين يناسبونه. يمكنك أن تنامى قريرة العين، فسرعان ما ستجدين زوجا.

– إذن، فأنت لن تغضب منى.

– لا تتصرفى كضحية، ستكونين سعيدة فى زواجك.

– لا أستطيع أن أفعل شيئا آخر. طالما أنك لم تطلب ذلك منى.

قال هيكل بشكل قاطع: أنا لا أحب المجوهرات.

وهكذا انتهت علاقة غرامية، نهاية أكثر سخرية من المتوقع. فهيكل لم يأمل فى شيء، ولم يشعر بأى يقين إنها ليست سوى بضعة مجوهرات. لقد اختفت العاشقة الصغيرة، لم تبق سوى امرأة صاحبة حظوة وثروة، إنه لم يعتمد على ممتلكاته المادية. كفت فجأة عن التسلية كى تعود إلى عالمها العفن، لاتستطيع أن تنغمس سوى فى الخداع. فالخداع أساس حياتها. وهى واعية له. لقد استخدمت أفضل مواهبها. كى تروى عطشها من الغرور والانتصارات السهلة على الرجال.

أراد هيكل أن يسكب بعض الدموع على تلك المخلوقة المدللة-التى اختفت من حياته. ولكن عينيه جامدتين، بدا ألمه نوعا من الطيبة والتخفف. انتابه الإحساس بأنه يولد من جديد. حرا، ملأه شعور باليقين. نظر نحو الفتاة الصغيرة التى تكره أمها فوجد وجهها وقد امتلأ بانتعاش برىء كاد أن يفقده. انتهت من التهام المثلجات، واتكأت على المائدة. وضعت يدها فوق خدها بشكل عبوس، أحس هيكل أنها مستاءة منه فابتسم لغيرتها. تمتمت سعاد:

– كيف أتصرف. كيف أستطيع ببساطة أن أتكلم مع رجل آخر، لقد عرفتك. ليس فقط لأننى أحبك. بل لأننى سوف أصاب بملل حتى الموت، أنا التى يشتهيها الناس.

كان يعرف أن هذا ليس حقيقة ، وأنها سرعان ما تتقبل بشاعة العالم الذى تعيش فيه . هذه البشاعة لاتبهره كثيرا . اختفت وراء بريق الجنس الثالث والأقنعة. ورغم كل المحيطين بها الذين تبدو صحبتهم رائعة . فإنها لم تجد سوى الرعب خلف هذه الوجوه المبتسمة المشدوهة بجمالها . كان يعرف خطر الغرور

على المرأة . إنها تصاب بالملل عندما يكف الإعجاب من حولها . لكن سعاد جميلة بما فيه الكفاية ولن تصاب قط بالملل .

لكن فيم الخداع ؟ لقد نفذت دورها بمهارة وحذق ، كما أعجزته كنوز جسدها اللدن بشكل يستأهل الاحترام . وعليه ان يتبعها في وساوسها ومخاوفها. فهو ليس ناكراً للجميل . إنها في حاجة لبعض من رقته . قال :

– علمتك أن تتمتعي من كل شئ في العالم . اذن لا تخشى شيئا . ولن تصابي بالملل .

سألت : هل تفكر في ؟ - ثم وبحركة تلميحية - : ولكن ليس بطريقتك الساخرة ؟ فأنا أعرفك .

– سأفكر فيك بكثير من الجدية . وأعدك بذلك .

وظلا لحظة صامتين . ثم فتحت سعاد حقيبتها وراحت تعدل مكياجها ، بدا هيكل مبهورا بالطريقة الذى تسلكها وهى تقوم بهذه اللمسات . إنها المرة الأولى التى يرى فيها الفتاة تهتم بمثل هذه الحركة البذيئة . تضع أحمر شفاه فوق شفتيها الفاغرتين . بدت فخورة بأنها أصبحت في مصاف النساء .

انتاب هيكل ضيقا وبعض الغيظ لرؤية هذا التلطيخ الذى يدنس الصورة التى أراد أن يحتفظ بها للفتاة . أدار رأسه منتظرا أن تنتهى من عملها الفاحش .

وعندما استعدت . قام . وخرجا من صالة الشاى ثم افترقا في الشارع .

أتى الشارع لهيكل بمشاعر جديدة . كان يئن وهو يتنفس بصعوبة ، فهو حساس للوعود المتراكمة في طريقه . هناك وجوه أخرى . ومشاعر أخرى تنتظره ، فكر أن حبه الفقيد قد اتسم بنقاء غريزى . هكذا دائما تنتهى كل مغامرة . لقد جرب شعورا غريبا من السعادة . وكأنه ترك للمرأة التى انفصل عنها جزءاً من مشاعره . أما الجزء الباقى فعليه أن يصوغ في العالم كله .

ذكره زحام الشارع ان أحدا من بين ذلك الحشد الذى يقابله لايشك في وجود شيء مهم يعرفه هو وحده . فسوف يقدم المحافظ استقالته قريبا . أحس هيكل بغتة أن هذا شيء يثير السعادة التى يدخرها لأصدقائه . أسرع الخطى

وراح يبحث عن بائع الياسمين الذى يتجول عادة فى هذه الدروب . رآه واقفا فى ركن من الباب ، أشعث الشعر وبادى الحزن رغم الزهرة الحمراء التى يضعها فوق أذنه . اقترب منه واشترى باقة رقيقة من الياسمين دسها فى جيب سترته الداخلى . ثم أوقف عربة . وأعطى الحوذى عنوان عرفى .

كان جالسا فوق قمطره ، فى صالة الفصل الخاوية . راح عرفى يركز انتباهه فى الكتاب الذى يقرؤه . كان ضوء النهار يتسرب من الأدوار الأرضية . ولكنه ضوء باهت شاحب كأنه الزنزانة . ترك عرفى قراء ته ورفع نظارته ودعك عينيه بانزعاج . امتلأت رأسه بأفكار مريرة . تتعلق بموضوع أمه التى تسبب له حرق الدم . كان يشك فى القرار الذى اتخذه . فأحد أصدقائه الأطباء نصحه أن يضع العجوز فى مصحة للعناية بها بأحدث الأساليب . هناك أمل ضعيف أن تتحسن صحتها . ولكن هذا الأمل الضعيف لا يساوى بكاءها وهى تذهب بعيدة عنه فالمكان بعيد عن المدينة ولايمكنه أن يراها إلا لماما . رفض عرفى هذا الحل تماما . فلديه الإحساس أن ترك أمه لرعاية غرباء سوف يجعلها تنساه وستضيع ذكرياتها فى حنايا ذاكرتها المريضة، اختنق قلبه، إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذها من هذا العالم البشع . لكنها الشعاع الذى يلمع بالسعادة منذ طفولته . راح يحبس الدموع التى ترقرقت فى عينيه . وأعاد نظارته . وعندما تأهل للقراءة ، لاحظ أن الضوء قد انخفض أكثر . وأنه لم يعد يرى شيئا .

أربكه ظهور هيكل فى الفصل مثل ظهور عدو خارج من الظلمات كى يكسر جليده الداخلى ، كان هيكل آخر رجل يرغب رؤيته فى هذه اللحظة . لأن تكتم وساوسه وحالته المزاجية وضعفه سوف يضطره أن يتصرف بطريقة غير متوقعة مع المتاعب التى يثيرها . إنه فى حاجة للهدوء والوحدة . راح يسيطر على شعور التمرد الذى يتولد فيه ضد تطفله . ونزل من قمطره لمقابلته وهو يقول :

– أهلا وسهلا .

رد هيكل : أهلا . اعتذر لإزعاجك . لكن كان يجب أن أراك .

ارتبك عرفى وهو يقول : أنت لاتزعجنى قط . أنا أقرأ . لكننى لاحظت أن

المكان مظلم جدا . انتظر ، سأبحث عن مصباح .

اعترض هيكل. لا لا، إنه أفضل هكذا، لسنا فى حاجة لمصباح.

لم يلح عرفي ، لأن رغبة ضيفه قد تقابلت معه في البقاء فى الظلام ، فهو يخشى أنه تحت نظرة هيكل الحادة يمكن أن يكشف معاناته . إنه لايريد أن يتكلم عن أمه . ولا عن المأزق المرعب الذى يرتطم به . إنه أمر يخصه . أمر يتعلق بمصيره . ارتبك أن الم يزيد على أيدى زنديقه ، أدرك أنه لن يهرب بعيدا . عندما شم رائحة الياسمين تفوح من الشاب . إنه يعرف أساليب هيكل . فلعله سيخرج الباقة الموجودة فى داخل سترته، ستخرج في اللحظة المناسبة ليقدمها لأمه التي ينوى أن يزورها فى حجرتها . هذا اللقاء بين هيكل وأمه يثير عرفي في جانبه الغريب ، المثير للهذيان . فهذا يتجاوز قدرته على المقاومة العصبية . تأوه . قال وهو يشير إلى أحد المقاعد لهيكل . ثم وهو يجلس أمامه في الناحية الاخرى من المقاعد : أجلس، أتمنى ألا يكون أمر مزعج قد جاء بك .

– بل على العكس . يمكنك أن تفرح يا أخى عرفي ، فالمحافظ، سيتغير .

– هل نُشر هذا في الصحف ؟

– الصحف لم تعرف بعد . الخبر جاء نى من مصدر أكيد ، وعليك أن تصدق .

– ماذا حدث ؟

– الأمر بسيط . مثلما فهمت . فالوزير طلب الاستقالة من المحافظ وسوف نتخلص منه خلال أسبوع .

لم تكن لدى عرفي أية رغبة في الفرح . فماذا يهمه من تغيير المحافظ . لم يجد شيئا يقوله يعبر به عن فرحته ولا عن رضاه . فكل شيء في داخله ساكن قائم على نفس المعاناة . ومع ذلك عليه ألا يخيب أمل هيكل بصمت طويل . هتف بصوت امتزج بالمرارة رغما عنه :

– هذا يرضي رغبتك؟ أليس كذلك ؟

بدا له الآخر لم يسمعه، لأن الرد لم يصل إلى هذا الوجه الساكن الذى يتلاشى ببطء . تغشاه الظلمة . وراح يميز أكثر فأكثر ملامح هيكل . وهو الغارق فى متاعب جمة . انتابته فكرة أن يسمعه ينفجر فى الضحك فجأة .أبلغه حدسه أن هيكل ليس فى حالة عادية . مر بداخله شىء ما غير محدد ، وشديد القلق. استند عرفى على المقاعد ، وأرهف أذنه وكأنه يستعد لسماع رسالة هامسة، رد هيكل .

– بكلمة واحدة . نعم .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى يا عزيزى عرفى . أن المستقبل يخبىء لنا مفاجآت . ويجب ألا ننسى أن هناك محافظين تافهين . إيمانهم بالطغيان الماسخ يقدم لنا مادة شهية .

قال عرفى وقد تحير قليلا من التفسير الغريب لهيكل : أكيد. اعتقد أننا يجب أن نمتثل للفرصة المهيأة لنا . أمامنا مساحة زمنية واسعة فى هذا المجال . وليس لدينا ما نخشاه .

– أنا لا أخشى . ولكن لدىَّ الإحساس أن المحافظ القادم سيصاب بملل قاتل . ربما سيتصرف كأنه قد نسى غباءات سابقة . أو كرجل يريد أن تكون له قيمة ، وهنا علينا أن ننفى أنفسنا .

بذل عرفى مجهودا خارقا كى يهتم بقلق هيكل حول موضوع المحافظ الجديد . إنه الآن يتساءل هل يضمن هيكل قلقه . وعن أى منفى يريد أن يتكلم ؟ ولماذا يشمله فى رغبته للرحيل نحو بقعة أخرى أكثر خصوبة فى العبث . إن عرفى ليس فى حاجة للذهاب للبحث عن الخسة والنذالة . فهى مزدهرة فى هذه الأرض وتنتشر أسبابها فى كل مكان . يمكنه أن يبتهج فى منزله . حدق فى وجه صديقه المتهف ، وحاول أن يدرك هذه الغيرة الخارجة عن المألوف . لم ير سوى الابتسامة الخفيفة التى تبدو كأنها تسبح فى الظلام الذى اشتدت كثافته، أحس أنه مادة لسخرية هذا الرجل الذى لايعرف الرحمة .

تلاشت الابتسامة فجأة . وسمع هيكل يسأله :

– كيف حال أمك ؟ لم أرها منذ فترة طويلة .

– إنها دائما في نفس الحال .

– ألا تتمنى لها أن تتحسن ؟

أثار السؤال عرفي ومده بقوة روحية، إنه واثق أن هيكل لم يسأله إلا ليتأكد منه . فهيكل يود أن تستقر كافة التغيرات المتعلقة بصحة المرأة العجوز . احتفظ بأمله أن يراها دائما في نفس الحال ، مصابة بجنونها الخاص .

أستبدت بعرفي رغبة أن يوقعه في فخ . لعله يكشف سبب هذا الاهتمام الزائد عن الحد ، قال : نصحوني أن أرسلها إلى مصحة . لكنني متردد .

– أفهم سبب ترددك .

– ولكن، ربما سأنتهي إلى حل .

صاح هيكل بحماس يدركه عرفي في أية لحظة : لاتفعل هذا قط . لاتفترقا أبدا يا أخي عرفي . ماذا يمكن أن تنتظر من هؤلاء الناس ؟ أنت هكذا كأنك تسلمها لجلاد .

– إنها في حاجة للرعاية ولا أستطيع أن أدبرها لك . وهم يستخدمون في هذه المصحة أساليب علاج جديدة . قيل لي إن هناك أمل في الشفاء .

– أنت طفل . لو كانوا قادرين أن يعيدوا لها عقلها، فلماذا لايطبقون أساليبهم على كل البشر . لا . لايمكن أية قوة إن تنزع الإنسان من شره . لاتجعلها هدفا لتجاربهم القذرة . فسوف تتعذب .

– ألا تعتقد أنها تتعذب ؟

– إذا أردت أن تعرف ، فهي ليست لديها أية فكرة عن المعاناة ، نحن فقط الذين نراها تتعذب .

– كيف . أنت ، يا هيكل . هل تتعذب ؟

مد هيكل يده، ولمس ذراع الناظر بشيء من التوسل :

– لاتتركها لهؤلاء الأوغاد . فهذا عمل وحشي .

سكت وأدار رأسه ، كيف يمكنه أن يتركها في ضعفها . مرت لحظة من

الألم ، والخوف ألا يرى العجوز المجنونة ، وأن يفقدها للأبد . ندم على كلماته ، ومشاعره التى أبداها . كيف سيفكر عرفى فيه ؟ تكهن الناظر الذى بوغت ، وهو ينتظر . بينما راحت نظرته تحوم فى الظلام الكثيف الذى يسيطر الآن على الفصل. لم يميز سوى الحروف الهجائية المكتوبة بالطباشير فوق السبورة ، تبدو أشبه بحروف هيروغليفية لامعة . وببطء ، وكأنه يمتثل لحدسه الباطنى ، قام واخترق صف المقاعد وصعد المنصة ثم جلس على قمطر الناظر البعيد ، وفى أسفله رأى عرفى ، مهموما ، مكتوما ، يلفه الظلام . بدا له أن آلاف السنين قد مرت منذ أن باح له بسره . وأنه يمكن الآن أن ينظر للأمام بعد أن فهم .

تخففت الدهشة التى استبدت بعرفى قليلا واستعاد ثقته فى نفسه . وأراد أن يصرخ فى هيكل معبرا عن فرحته لأنه قريب منه فى بأسه ، ذلك الألم الشديد الذى قتل فيه شيئا ما للأبد . يعرف أن «هيكل» متأهب للخطر الذى يمزق روحه . ابتعد عنه والتصق بالحائط فى كبرياء . فماذا فعل وهو جالس فوق القمطر، مخلوق ضائع وحيد فوق صخرة ؟ لماذا لا يقترب منه . يمد له يده فى عناق أخوى حاول أن يتكلم، لكن الكلمات انحشرت فى حلقه ، وسمع صوت هيكل يدوى فى الصمت:

– هل يمكن أن أراها ؟

قال عرفى : ستكون سعيدة . تعال .

لحق به هيكل . خرج الاثنان من الفصل ، وسلكا الممر الذى يؤدى إلى غرفة العجوز المجنونة .

كان باب الغرفة مفتوحا . ينساب منها ضوء خافت . توقف عرفى عند العتبة ، قلقا ألا يكتشف أمه . لم يرها فى أى مكان بالغرفة . إنها نوع من الزنزانة ذات نافذة مسدودة بألواح الخشب . من أجل وقاية المجنونة من نظرات الجيران المختلسة . تضم سريراً حديدياً صغيراً ، وكومودينو وأريكة مغطاة بقماش من الجوت . وفوق الأرض قطعة من الحصير . ومصباح غاز فوق الكومودينو ، يشع ضوؤه . هتف عرفى :

– أمــاه ؟

لم يسمع ردا ، ولكن عرفي أحس بشيء ما يتحرك في الركن ، بين السرير والحائط . اقترب يتبعه هيكل . كانت العجوز المجنونة جالسة القرفصاء ، انهمكت في ترقيع خيشة موضوعة فوق ركبتها . لم تبد أية بادرة دهشة لوجودهما ، لكن عينيها لمعتا لرؤية هيكل ، ثم راحت تحرك وجهها ، وقالت :

– انتظرك يا أمير ، بالأمس حلمت بك ، فوق حصانك الابيض تصرع التنين المرعب ، ولكن التنين كان يولد من جديد بعد كل ضربة ولايموت أبدا ، ولكنك ، يا امير ، كنت تضحك و تضحك ... وأعرف لماذا كنت تضحك ، فانت لم تود قتل التنين ، لأنه يسليك ولاتبغي موته .

قال عرفي : أماه ، قومي ، واستريحي على سريرك .

لم تتحرك ، وقف هيكل أمامها ومد لها يده ليساعدها على الوقوف ، طبقت يدها وابدت احتجاجا كفتاة رشيقة مليئة بالكبرياء ، بدت نحافتها الشديدة تحت ثوبها القطني وجعلها خفيفة كالريشة ، ثم راحت ترتب الخيوط البيضاء في شعرها وهي تدندن ، تمددت فوق السرير ، وفي ذبول كأنها محظية تنتظر عشاقها وتعرض عليهم اغراءها الساذج .

هنا سحب هيكل باقة الياسمين من جيبه الداخلي وقدمه لها ، ابتهجت ورفعتها إلى أنفها ، تنسمت عطر الزهور كامرأة اعتادت هذا النوع من السلوك قالت مدندنة .

– يا أمير ، أنت تحرجني كثيرا ، أنت تدمر نفسك من أجل أمرأة عجوز مثلي .

رد هيكل: ليس هذا سوى شيء صغير ، قياسا للسعادة التي تهبينني إياه.

– سعادة ، أنا ؟ يا أمير ، أنت تسخر من شيخوختي ؟

– تعرفين إنني لا أجرؤ قط .

– ومع ذلك أعرف أنك رجل ساحر .

– ربما بعيدا عنك . لكن هنا قلبي مفعم بالحزن .

– قلبك كبير يا أمير . إنه في حاجة إلى غابات شاسعة . ماذا يمكنك أن تجد في هذا الكوخ الفقير . لكن في الخارج هناك روائع ؟ لماذا تضيع وقتك هنا؟.

وحركة باقة الياسمين كأنها مروحة . أحست أن عطرها يفوح في الغرفة فرقص هيكل عند طرف السرير . بدا كأنه تجاهل وجود عرفي نظر إلى العجوز المجنون ببهجة بادية ، وقال :

– لا يوجد شيء في الخارج يمكنك أن تندمي عليه . صدقيني .

أغلقت عينيها ثم غرقت في تأمل شديد . ألقت رأسها على الوسادة ، وضمت باقة الياسمين بقوة على خياشيمها ، وكأنها تتنفس منها عطر العالم الخارجي، عالم الأحياء الذي حاولت أن تتذكره .

راح عرفي يقاوم أحاسيسه وهو واقف خلف هيكل . فوق كتفي الشاب رأى أمه متمددة فوق السريركالموتى . لم يجرؤ أن يتدخل فيما بدا له هبة من السماء . لقد حقق هيكل معجزة حين أدار مثل هذا الحديث مع أمه ؟ إنه يكلمها بطريقة طبيعية ، وكأنه يتكلم إلى كائن عاقل . والعجوز ترد بنفس النغمة وكأن مخها المضروب قد بدأ في العمل بشكل طبيعي ، هنا تساءل عرفي عما إذا كانت أمه مجنونة حقيقة أو أنها تمثل مسرحية، سرعان ما ألغى فكرته هذه . فالمهم بالنسبة له الآن ، هو أن تخرج أمه من ليلها وتعود الي نبلها وبهجتها .

فتحت العجوز عينيها ، واخفضت باقة الياسمين . وسألت وفي صوتها نبرة قلق :

– كيف حال البشر الآن يا أمير ؟ أذكر أنهم كانوا أشرار .

بدت وكأنها تستعلم عن بلد غريب زارته في شبابها . ولم تعد إليه قط، رد هيكل :

– إنهم هكذا دائما . ولكن غباءهم لايزال ممتعا .

– أنت لاتحمل أحقاد في قلبك . شاهدتك في حلمي تلك الليلة . لم أر أي بادرة سوء نية في عينيك وأنت تحارب التنين، مع ذلك أراد أن يتخلص منك يا أمير

. فانتبه إلى نفسك .

– لن اجعله يتخلص مني . فلست ممن يتم التخلص منهم . سأدافع عن نفسي بلا هوادة . لاتقلقي عليّ .

طبقت يديها ، ووضعتهما على شفتيها كأنها عاشقة متيمة ترى حبيبها يرحل الى حرب شرسة .

– أجل . دافع عن نفسك . وعد لي منتصرا .

تأملها هيكل متأثرا ، متوغلا بكل وجوده فيما وراء هذا الوجه النحيل الرقيق ، الخالي من تجاعيد الشيخوخة . لم ير وجها بمثل هذا الصفاء . وهذه المساحة الخاوية من أى دناءة حتى وجه الطفلة الصغيرة فى صالة الشاى . بدا له الآن مطبوعا بعلامات فاحشة ، حيث امتزجت نظراتها بالخداع والترقب كأنها تقوم باغراء خصم غادر . مستخدمة سلاح الأنوثة . لاشيء يقارن بالسلام فى تلك اللحظة . إنه شخص مخلص من كافة تملقات البشر الثقيلة . لايمكنه أن يحس بالسلام مع هذا العالم إلا أمام هذه المجنونة التي نست متاعب الغرور. وأصبحت بالنسبة له مجرد مخلوق آدمي بلا مرارة ولا طموحات .

لاحظ أن المرأة العجوز تنظر له بسعادة . وكأنها ترتاب في السلام الرائع الذي يسكنها :

– نحن متفاهمان . أليس كذلك يا أمير ؟

قال هيكل : طبعا . ولكن يجب ألا تخبرى أحد بسرنا .

هنا تركت السرير ، ثم بدأت فى القفز والدوران فى المساحة الضيقة بين السرير والكمودينو . راح طرف فستانها يتسع حول جسدها الضامر . وظهر ساقاها العجفاوان المليئتان ببقع سمراء، راحت تعيد ترتيل اغنية كئيبة . لكنها مليئة بالخصوبة والشباب ، بصوت فتاة مبتهجة تلعب فى حديقة طفولتها .

لم يبد هيكل أى حركة كي يوقف من رقصها المفاجئ . أحس بالسعادة وهو ينظر اليها برقة، وكأن المنظر يشكل جمالا فريدا لشيء غير مألوف .

شحب عرفي ، واللحظة قصيرة ، ود أن يوقفها ، وأن يفسد هذه الرقصة

المرتعشة التي تعيد أمه إلى جنونها . ولكن شيئا ما إعتمل فيه إزاء موقف هيكل . فهم فجأة إن إعتياد الجنون لايسبب أى رعب . فمن السهل أن يعيش مع أمه أفضل من أى شخص عاقل . فالجنون لا يضيف شيئا . بدت له الفكرة كأنها خلاص . فراح يبتسم لأمه .

توقفت المرأة فجأة عن دورانها وعادت لتستريح فى سريرها ، لاهثة . وقد تجمدت ملامح وجهها من المتعة . قالت موجهة كلامها لابنها :

– يا صغير . اشتر لى رداءً جديدا . فردائى قديم . وأريد أن أكون جاهزة فى المرة القادمة عندما يأتى الأمير لزيارتى . إنه يقدم لى الزهور . وأنا استقبله كشحاذة . يجب أن يرانى جميلة .

فتشت عن باقة الياسمين، قبضت عليها بيديها . ثم سقطت رأسها على الوسادة وبدأت كأنها تغرق فى نوم فاتر .

تأملها الرجلان لحظة ، ثم خرجا فى صمت من الحجرة .

لم يجرؤ عرفى أن يقول شيئا . فهو لم يشعر بمثل هذه السعادة من قبل وبدا له أن عبئا ثقيلا قد نزل من فوق كتفيه . فأصبح حرا طليقا . ولم يعد مقوس الظهر . رفع رأسه كى ينظر إلى هيكل الذى بلغ باب الشارع .

ضما أيديهما قبل أن يفترقا عند باب «البدروم» وفى الشارع الخالى الضعيف الإضاءة قال هيكل :

– أنت تملك بضاعة ثمينة . لاتتركها قط للأوغاد .

رد عرفى : لاتقلق ، الآن فهمت . واعذرنى يا أخى هيكل اننى ظللت لا افهم وقتا طويلا .

وأبتعد هيكل . ثم استدار بعد خطوات ورأى عرفى واقفا عند مدخل «البدروم» ، راح يحييه بإشارة أخيرة من يده . تحية مليئة بالمودة والشموخ . وكأنه سلطان راحل إلى منفاه . بعيدا عن أملاكه الغالية .

(١٢)

لم تكن سوى سحابة عابرة فوق المدينة ، اختفت الشمس تماما وكأن عاصفة ما قد هبت. صنعت الطائرة الورقية بقعة صفراء فى أعماق السماء الداكنة تتأرجح وتدفعها زوابع الرياح التى تهب من البحر . راح ذيلها الطويل يتمايل ويتراقص كثعبان يخرج من بطن السحب ، مشدوه بالفراغ . امسك كريم الخيط بيد ثابتة ، وراح يتحرك فوق السطح من ركن لآخر . محركا الطائرة الورقية ، وهى ترتفع أكثر فأكثر . إنها جديدة . كبيرة الحجم ويجربها بكل متعة ووحشية . صنعها من أجل «قمر» العاهرة الصغيرة ، التي عادت البارحة . التقاها وهو عائد لمنزله ، جالسة تنتظره على السلم . اعتذرت لأنها أزعجته ، ولكن كريم رفعها بين ذراعيه وحملها إلى حجرته . ومارس الحب معها طيلة الليل . وعندما استيقظ دون أن يقدم لها شيئا . ترى ماذا ؟ ليس معه مال أو شئ ثمين يمكن أن يعبر به عن مشاعره المجانية التي يحسها نحوها . فكر في صناعة طائرة ورقية . طائرة ورقية لا يبيعها . إنها عمل فنى راق . اختار أدواته بعناية . وكأنه سوف يبني قصرا لامرأة أحلامه .

الآن ، ينتظر أن تبلغ الطائرة هدفها ، هاهى ثابتة فى السماء ، نادى الفتاة التى جاءت تتأملها . بدا فخورا بهذا النجاح الطيب الذى حققه بالطائرة ، فالفتاة سوف تعجب بعمله . أليست هذه الهدية رائعة كي يقدمها لها ؟ طائرة جميلة تطير أثناء العواصف الشديدة في السماء وكأنها عاشقة تتأوه ؟ ابتسم خفيفا لشاعريته . وراح يوجه الطائرة الثقيلة بحذر عبر مطبات الهواء خاشيا أن يصيبها ضرر . فعند أقل بادرة من عدم تركيزه يمكن لهديته الجميلة ان تتحول

إلى قطع . احس للحظة عابرة بضيق . ثم تنفس الصعداء . لقد وصل إلى هدفه ، وهاهي الطائرة الورقية متوازنة في أعلى السماء . وحيدة . أحس بها كريم تهتز في طرف الخيط . توقف ، وهو يلهث ، وقد امتلأ جذعه العارى بالعرق . واستند على جدار السطح للحظة طويلة ، وهو يتأمل صنيعته بكبرياء شديد .

– الحمد لله . أرى أنك تتسلى جيداً .

ارتبك كريم ، تأرجحت الطائرة بعيداً في خفة ، يجب أن يسحبها على الخيط ليوجهها . عرف صوته دون أن يبعد عينيه من فوق الطائرة الورقية ، صاح .

– أهلا ، طاهر . صدقني . أنا لا أتسلى . أنا أعمل .

تقدم طاهر نحو السطح ، وهو يرتدى بدلته الضيقة ، وياقته القصيرة ورابطة عنقه . لم يكن هذه المرة حافيا . بل يرتدى حذاء بنعل جديد ضخم . صُنع كي يعيش طويلا . أحدث ضجة ملحوظة فوق البلاط الذى يغطى أرض السطح . بدت هذه الضجة كأنها تعجب طاهر . لأنه في كل خطوة يئن في كرامته . اقترب من كريم . ووضع يده على كتفه العارى ، وقال :

– أنا سعيد ان أراك في كدك اليومى . فلديك سطح رائع . كما أعرف . اسمع، يجب أن أعتذر عن تلك الأمسية .لقد تفهم صديقك هيكل موقفى . ولكننى يجب ان اتكلم اليك .

قال كريم: لا أريد شيئا .

لم ينظر الى طاهر. بل استمر في تأمل الطائرة بعينيه . الآن ابتعدت السحابة الكبيرة . وظهرت الشمس ، ساطعة مثلما شحبت أثناء هذا الغياب الطويل، راحت أشعتها تنعكس على هيكل الطائرة الورقية الصفراء ، التى تبعد في زرقة السماء وكأنها انغمست في الذهب . أحس كريم بالمتعة لكل هذا الذهب الذى يصبغ أطراف الخيط . ولكن متعته افسدتها اشياء اكثر واقعية . فحضور طاهر إلى سطحه لم يكن على هواه بالمرة . بل على العكس بدا مرعبا . فقد وضعه طاهر في موقف صعب . أيضا فإن وجود شخص ثورى عنده يمكن ان يسبب له مشاكل لا حصر لها . لأنه يعرف أن الشرطة يجب أن تستجوبه عن زميله القديم .

وإذا عرفت ، لسوء الحظ ، نبأ هذه الزيارة ، فلن يفوتهم أن يسببوا له المتاعب ، منها أنهم سيمنعونه من الإقامة في هذا السطح . سوف يضطرونه أن يغادره ، وهذا أمر متوقع بلا أدنى شك . ولكن ماذا يفعل ؟ لايمكنه أبدا أن يسد بابه أمام طاهر . فهذا لايتناسب قط مع طبيعته . فهو لديه أعلى قدر من حسن الضيافة ، ومهما حدث فهو يعرف أنه يطرد زميلا قديما من بيته إلى الأبد.

بدا طاهر غاضبا من الطريقة التي استقبله بها . اعتقد أن كريم مشغول بطائرته الورقية عنه . قال له :

– أترك هذه الطائرة . وانظر اليّ .

قال كريم وهو لايزال يرفع عينيه الى السماء : لقد استغرقت ساعة كي أطيرها عاليا . ألا تجد هذا جميلا ؟

– لا أنوى أن أتسلى بطائرة ورقية . ماذا تتصورني ؟ هيا . كف عن اللعب يجب أن أكلمك في أشياء جادة .

انتبه كريم : ماذا أفعل بالله عليك ؟ هناك آلاف الرجال في هذه المدينة ويجب عليك أن تأتي اليّ لتكلمني في أشياء جادة . ألا يمكنك أن تتسلى قليلا انظر الى هذه الطائرة الورقية . إنها تحفة .

قال طاهر بصوت غامض : لقد جئت اليك لأنك تسكن هذا السطح .

– هذا السطح . هل تود شراءه ؟

– لاتقل مثل هذه الغباءات . أريد أن أكون هنا بين الساعة التاسعة والعاشرة . سيكون سهلا عليك أن تؤدي كل هذه الخدمة ؟

– ماذا ستفعل . هل ستستقبل فتاة ؟ سأكون سعيدا أن أعيرك حجرتي .

سكت طاهر . رفع رأسه ونظر الى الطائرة الورقية الساكنة في السماء . يجب عليه أن يجرب كافة أشكال الصبر كي ينجح في لفت انتباه كريم . أما بالنسبة لاقناعه بمشروعه . فان هذا أمر بالغ التعقيد . هذا الغبي يتصرف كمهندس لأنه يطير طائرة ورقية . لا علاج لمثل هذا التدني.. اعتقد طاهر أنه يواجه

أشد ما يكرهه وهو الدخول مباشرة في الموضوع. كيف يبلغه ؟ كيف يدخل في الأمر طالما أنه ينكر مسألة الكرامة والشرف ؟ هذه الكنوز الروحية التي يحتفظ بها الشحاذون المساكين في أثوابهم الرثة . إنه يبدو كطفل مشدود خلف طائرته . بينما الشعب يعاني ، ويغرق المدينة في قاذوراتها . ود طاهر أن يبكي ، وأن يصرخ ويضربه . لكنه كظم غيظه لأنه يمثل هذا الشعب ، واجبه يتطلب السكوت مؤقتا وابتلاع مرارته . وألا يفكر سوى في هدف محدد . قال بلهجة ناعمة وبودة كأنه يأمل أن يصحبه كريم إلى حفل :

– هل تعرف أن هناك احتفالا كبيرا هذا المساء في الكازينو .

– لا . بشرفي . فلست اجتماعيا مثلما تعتقد .

– الأمر لايتعلق بالاجتماعيات . فأنا اتجنبها . وأنت تعرف أن المحافظ سيذهب . فهو راعي الحفل .

سأل كريم ، وقد أصابه القلق فجأة من اسم المحافظ :

– وماذا ؟

– سيمر بسيارته ، ومعه موكبه من الدراجات البخارية ، على طريق الكورنيش . إنها الوسيلة الوحيدة الممكنة . لقد درست الموقف .

– ماذا تقصد بالضبط ؟ أنا لا أفهم شيئا قط.

أخذ طاهر وقته قبل أن يرد. نظر الى وجه كريم الرقيق. وقد شدد يديه على خيط الطائرة الورقية. ثم رمى كلامه:

– حسنا، الأمر بسيط. سأكون هنا ومعي قنبلة. سألقيها على سيارته، فهذا أحسن مكان.

صاح كريم وهو يرمق طاهر بعينيه الخائفتين: نحن هنا. أشك أن هناك قنبلة في أي مكان.

تمايلت الطائرة الورقية على هواها. ثم انحرفت بشكل مرعب، وسقطت على مسافة أمتار. كطائرة ضائعة. جرى كريم فوق السطح دون أن يثير قلق

طاهر، متناسيا الموضوع الهام الذى حدثه عنه. لم يفكر سوى فى إنقاذ طائرته الورقية من الكارثة . ثم ثارت أحاسيسه، وبكل سرعة، حاول أن يعيد الطائرة الورقية الى توازنها. ثم امسكها فى وسط السطح، وأحس بفخر لأنه استطاع أن يسيطر عليها بفضل خبرته فى السباحة الجوية. صاح طاهر:

— برافو. لقد أمسكتها بأعجوبة، أعترف أنك ادهشتنى.

كان المديح المنطلق من طاهر ممزوجا بسلوك دبلوماسى ثقيل. أحس فيه كريم بالغثيان. رد دون أن يلتفت اليه:

— ياعزيزى طاهر، اعرف اننى لا أشاركك قط فى أعمال العنف وسطح بيتى ليس سلخانة.

قال طاهر وهو يقترب منه: لايمكنك أن ترفضنى، لأننى لست الوحيد الذى ترفضه. لكن كل زملائنا، لأنك تعرف جيدا أنهم طردونى.

ابتسم كريم فى داخله، وبردائه الضيق وياقته القصيرة الجامدة ورابطة عنقه، بدا طاهر أشبه بشخص متواضع أراد أن يجعله يعرف أن وراءه مؤسسة، شعبا ربما، مستخدما فمه، محاولا أن يمتلكه بالكلمات. هل يعامله كشخص غبى؟ انتابت كريم شفقة من سذاجته. إنه واثق أن كريم لن يتكلم لأحد عن مشروعه، فهو كتوم. كما أن وسواسه يجعله يؤمن بمناهضة الظلم والقهر، انه يغلى فى داخله بما يحمله من آراء حول المعاناة الانسانية، انه مستعد أن يرتكب جريمة عنيفة قد تقوده الى المشنقة حتما، راح يتصرف كرجل ضرير يمشى نحو هاوية، فالامر بالنسبة له غريزة مصيرية، فوق جبينه أنه منذ ميلاده. ويجب أن ينجزه، أنه بلا شك لايعرف أن المحافظ سيترك منصبه. وهو بذلك سيقتل رجلا مات معنويا.

قال كريم:

— اسمعنى جيدا، فالمحافظ فقد وظيفته. لم يبق أمامه سوى ساعات. فالوزير طلب منه الاستقالة. وقريبا لن يكون سوى ذكرى. أعرف هذا من مصدر موثوق.

قال طاهر بكل ازدراء: لا تحاول أن تحكى لى قصصا . فمصادرك ساخرة هل تريد أن تجعلنى أصدق أن اعلاناتكم قد اقالته؟

— نعم، إعلاناتنا . أعرف أنه من الصعب عليك أن تصدق، لكننى أقسم لك،

فلتتخل عن مشروعك.

– أبدا. لقد قررنا أن نضربه ضربة قاضية. سيموت الطاغية. وقد قلت هذا. وسوف تساعدنا.

مالم يقله لكريم أنه يدبر هذا الاغتيال كي يغسل العار ليكافىء دعابات ونزوات هيكل. هذا الصفيق محطم الثورة. سوف تشك فيه الشرطة على أنه مدبر هذه المذبحة، مثل السم الذى يسرى في الدم. فإنه لم يتحمل أن يستكمل نضاله مادام الاتهام الظالم يقلب أفكاره، فعليه أن يكشف للسلطة أنه لم يتخل عن اساليبه، وأن يبلغهم أنه من الممكن الاعتماد عليه. فلا يتركونه ينام في هدوء، ود أن يهزهم بحدث بشع يجعلهم يفهمون أن كل هذه الإعلانات وكل هذه القصص بشأن إقامة تمثال للمحافظ، لاتتفق مع مفاهيمه في قلب السلطة. وبعد هذا الاغتيال سيضطرون إلى معالجة أخطائهم، إنها المحاولة الوحيدة التى أمامه كى ينقذ شرف حزبه في مواجهة الحكومة، فطاهر لايميل للأساليب الاقل دموية، قال كريم الذى بدا في استعادة طائرته الورقية وهو يسحب الخيط، ويلفه حول قبضته:

– من الافضل الاتعتمد عليّ، فأنا لن أوافق قط أن أمشى على دربك.

هتف طاهر غاضبا: هذه ليست حيلة، بل بسبب الشعب الذى أصبح لعبة. ألا تحب هذا الشعب؟

هتف كريم غاضبا: أنا لا أحب أمى. لماذا تريدنى أن أحب الشعب؟

– انت تتكلم كوغد. قل إنك خائف.

– بالتأكيد أنا خائف، ماذا تعتقد؟ فأنا أحب الحياة.

أشار طاهر وهو يلوح بإصبعه إلى الطائرة الورقية: هل هذا ماتسميه حياة؟.

قال كريم مبتسما: انها تبدو لك غريبة. أما بالنسبة لى. فطيران طائرة ورقية يكفي أن يجعلنى سعيدا. حكومتك لاتهمنى إلا بقدر ما تسلينى، ولايهمنى موتها. فأنا مرعوب من البكاء.

وأكمل دوران الخيط حول قبضته، انخفضت الطائرة شيئا فشيئا. راح طاهر ينظر إليه ببرود وأحس بأنه مقهور، أثارته وقاحة كريم، لكنه استطاع أن

يسيطر على سخطه، لم ير سوى مهمته المرعبة، فاغتيال المحافظ أصبح بالنسبة له مسألة حياة أو موت، لم يتراجع أمام أي عقبات، أو تضحية، عليه كي يصل إلى هذا الهدف السامي أن يلح ويصر،، فهذا دوره كمناضل، ورغم أنه يعتبر كريم خائنا وجاحدا، فإنه مستعد أن ينحني أمامه ويرجوه أن يوافق على فكرته، لكن كريم لم يعره اهتماما، انتزعه من قلبه تماما، فهو ليس سوى آلة يصفى بها حساباته مع المحافظ.

وصلت الطائرة الورقية إليهما كطائر ضخم جريح بدا شامخا وسط الشمس، وضعها كريم أرضا برقة، ثم راح يجمعها ويضعها في ركن من الشرفة.

وأثناء ذلك بدا طاهر فريسة لسراب راح يشده للأغوار، ويدخله في فراغ قوته المنتفخة، تأمل صامتا، مبغوتا وغاضبا، الفتاة الواقفة عند باب غرفة كريم، إنها «قمر» العاهرة الصغيرة الذى جاءت تلحق بحبيبها، والتي رأت غريبا فوق السطح، تماسك، مندهشا رغما عنه، قد أخذت حماما ويبدو مظهرها منتعشا ولطيفا، يبدو جسدها الغض واضحا تحت ردائها الشفاف مما أثاره بشكل غريب، ادار طاهر عينيه بتأذ، وكأن هذا الظهور يمثل بالنسبة له صورة فاجرة فاسقة، تمتم وهو يوجه كلامه لزميله:

– انت الآن تعيش مع امرأة.

قال كريم: انها عشيقتي، تعال أقدمها لك،

– أنا لا أهتم، ولكن، لعلها سمعت حديثنا،

– لا تهتمّ، فلن تتخلص منك، إنها ضحية المحافظ، فجنوده يمنعونها من التجول

قال طاهر: يا للعنة على مثل هذه الضحية، إنها لاتمثل أية أهمية، ليست سوى إفراز لنظام اجتماعي يقهرنا،

صاح كريم: كيف، هل تعتبرها هكذا، أجمل إفراز في العالم، أشعر بالسعادة التامة مع هذا النوع من الإفرازات،

قبل لحظة أحس طاهر أن هناك أملا ضعيفا لإقناع كريم، ولكن بعد أن رأى هذه الفتاة ذات المظهر الوحشي، فهم أنه من غير المجدى أن ينتظر شيئا من

رجل يعيش فى فحشاء وفجور. لقد وقع كريم تحت سطوة لحم هذه الفتاة، وأصبح عبدا للجنس، ظل يسبح فى ماخور النظام، ولا يمكنه قط أن يخدم أهدافه كرجل ثورى. قال:

– سأذهب. ولكن لن أضيع وقتى، لقد علمتنى أمى إلى أى حد يمكن للإنسان أن يكون حقيرا.

قال كريم: انتظر، سوف أعد لك قهوة، ألا تريد أن تتناول فنجان قهوة؟

تذكر أنه قد خيب أمل كل الأنظمة المدنية عندما لم يقدم شيئا لطاهر. فأحس بخجل شديد.

لم يستدر طاهر ليعلن موافقته أو قبول دعوته. فقد راحت أصوات قبقابه تدق السلم لفترة، ثم اختفت للأبد.

عبرت «قمر» السطح، واقتربت من عشيقها:

– من هذا الرجل؟ إنه يخيفنى.

رد كريم: انه صانع قنابل.

اندهشت الفتاة: قنابل، يانهار أسود.

– بالعكس. انه نهار رائع.

ثم أمسك كتفها وضمها اليه، وأعادها إلى الحجرة. لكن حكاية الاغتيال هذه لم تعطه أى رغبة فى ممارسة الحب.

وفى ظهيرة اليوم التالى، وبينما هو يفتح الجريدة التى أحضرها له خادمه علم هيكل نبأ اغتيال المحافظ. وفى الصفحة الأولى من الجريدة صورة تمثل عربة المحافظ محطمة من انفجار قنبلة. وصورة طاهر. دامى الوجه متورما. وقد كُبلت يداه فى قيود ممتدة أمامه بطريقة تنم عن الاعتزاز. ملأت تفاصيل الاغتيال صفحات عديدة. لم يذهب هيكل بعيدا. فرك الجريدة وألقاها ارضا، فقد بُوغت برعب هذا العنف المجانى. فالمحافظ الذى كاد يختفى تماما من الحياة، قد أصبح شهيدا على يدىّ طاهر، وأصبح الجلاد ضحية، ونموذجا حيا للوطنية والفداء لأجيال المستقبل وسط المخادعين الخالدين.

رقم الايداع ٧٩٠٩ / ١٩٩٣
I. S. B. N
977 - 07 - 0282 - 8



البير قصيرى

● ولد في القاهرة في ٣ نوفمبر ١٩١٣ .

● تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية بالقاهرة . وبدأ يكتب القصة القصيرة . ثم الرواية وترجمت بعض أعماله الى اللغة العربية في مجلة «التطور» .

● نشر مجموعته القصصية الأولى «بشر نساهم الله» عام ١٩٤٠ ، ثم روايته «منزل الموت الأكيد» في مصر عام ١٩٤٦ .

● سافر الى فرنسا للاقامة، بأحد الفنادق الصغيرة ، وهناك نشر روايات قليلة العدد منها «شحاذون ومعتزون» عام ١٩٥٥، و«العنف والسخرية» و «كسالى الوادى الخصيب» عام ١٩٦٤ و«مؤامرة المهرجين» . وتدور أحداثها جميعا في الاحياء الشعبية المصرية .

● حصل على جائزة الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٩٠

● تحولت أعماله الى أفلام سينمائية في مصر ، وفرنسا ، واليونان ومنها «الناس اللى جوه» ، و «شحاتين ونبلاء» .

هذه الرواية

حصلت هذه الرواية على جائزة الأكاديمية الفرنسية قبل عامين .

حدث ذلك كمحاولة لإعادة اكتشاف أهم روائى يكتب أدبا أجنبيا باللغة الفرنسية واعتبر أن البير قصيرى هو الكاتب الأكثر أهمية فيمن يكتبون بهذه اللغة بعد سيدار سنجور .

ورواية «العنف والسخرية» هى أهم روايات الكاتب على الإطلاق . وذلك حسبما كتب قصيرى فى خطابه الى روايات الهلال «إنه لمن أسباب السعادة بالنسبة لى أن أكون مقروءاً فى وطنى ، خاصة أن «العنف والسخرية» هى أكثر أعمالى قربا الى قلبى»

ولذلك فإن أقل ما نفعله اليوم أن نقدم الترجمة الكاملة لهذه الرواية . ونحن نحتفل بالعيد الثمانين لميلاد قصيرى .

إنها واحدة من الروايات التى تأخرت ترجمتها إلى لغتها العربية ، رغم أنها يمكن أن تغير خريطة الرواية العربية فى القرن العشرين . ليس فقط لأنها تناولت موضوعات شديدة السخونة والحساسية فى كل العصور . بل ايضا للغة الأدبية الرفيعة، البالغة الخصوصية التى يستخدمها الكاتب .

روايات الهلال تقدم

١٩٥٤

بقـــــلم

جميل عطية ابراهيم

تصدر : ١٥ نوفمبر سنة ١٩٩٣